"القاعدة": استراتيجية الهَرَم المقلوب

هشام عليوان(*)

المقدمة

إنّ "القاعدة" تعبير دقيق عن كيان شديد المرونة صلب النواة، انطلق عام 1988 كأوسع من تنظيم وأقل من تيار، وهو اسم على مسمى مائع قابل للزيادة والنقصان. ومع تفجيرات 11 أيلول (سبتمبر) 2001 في الولايات المتحدة، ازداد الاسم غموضاً وصار أشبه بأُحجية غير قابلة للحلّ، رغم محاولة توضيح المعنى لاحقاً عبر تركيب الاسم ليصبح "قاعدة الجهاد" على أنه ثمرة الاندماج بين "القاعدة" ذات الأغلبية السعودية اليمنية وتنظيم الجهاد المصري(1)، بما يتجاوز حال التحالف العضوي بين التنظيمين ضمن الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين التي أعلنها أسامة بن لادن عام 1998.

ورغم الإجراءات الصارمة لقبول الأعضاء وخضوعهم لأنظمة تدريبية وسلوكية خاصة، ومنها السريّة العالية حتى داخل التنظيم نفسه(2)، لم تسعَ

(*) باحث في الفكر السياسي الإسلامي.

(1) ظهر الاسم الجديد عام 2002 في بيانات التنظيم، بعد سقوط دولة طالبان في أفغانستان، لكن يقال أيضاً إن الاندماج تمّ قبل أسابيع قليلة من عملية 11 أيلول (سبتمبر) 2001.

(2) هذا ما تكشفه –على الأقل– الوثائق التي عثر عليها الأمريكيون في أفغانستان خريف 2001، وفي مقر إقامة بن لادن في أبوت آباد بباكستان عام =

"القاعدة" لأن تكون تنظيماً هَرَمياً تقليدياً، ولا أن تتحوّل مع الوقت إلى إطار حزبي ضيّق جاذب للملتزمين طارد للمخالفين. وهي لم تبدأ كتنظيم محلي ولا هي تعمل كذلك، بل تفترضُ أنها جزء عضوي من الأمة وإن كانت تتلبّس دور الطليعة فيها، حتى بدت "القاعدة" وكأنها رأس الحربة في هَرَم مقلوب، حيث تتحمّل العبء عن الأمة وتتحدّث باسم مصالحها دون تكليف أو تفويض، متجاوزةً في ذلك الحكومات والهيئات والحركات.

وقد تجلّت وظيفة الاسم ذي الدلالات الضبابية بعد الضربات الشديدة التي تعرّضت لها "القاعدة"، فلم يعد الاسم يدلّ بالضرورة على التنظيم المقصود إعلامياً على الأقل، بل استرجع المضمونُ الفكرةَ الأصلية التي انطلق منها المشروع الأول(3)، مع انفكاك ارتباطات قديمة من زمن الجهاد الأفغاني ضد السوفيات(4). ولاحقاً، عاد نطاق الدلالة ليتّسع مع الوقت بشكل معاكس، مع تطوّر الأحداث، ليضمّ الاسم مكوّنات أخرى (جماعات وأفراداً) كانت قريبة بتفاوت من المشروع دون أن تكون تعبيراتها الأيديولوجية والتنظيمية متطابقة مع ما يدلّ عليه المفهوم المصطلح عليه(5).

= 2011، ونشرها على التوالي مركز مكافحة الإرهاب في الولايات المتحدة المعروف باسم (Combating Terrorism Center).

(3) أي عادت إلى سيرتها الأولى كنخبة عسكرية للتدريب والتجنيد والتمويل في خدمة حركة جهادية محلية تكافح ضد احتلال أجنبي، وهي حركة طالبان خاصة بعد عام 2001، وبعد الغزو الأمريكي للعراق عام 2003.

(4) ابتعد أغلب الأفغان العرب عن "القاعدة" لأسباب مختلفة منها انتهاء الجهاد ضد السوفيات، ومنها الالتزام بنهج عبد الله عزّام، ومنها الاعتراض على مخالفة أمير طالبان الملا محمد عمر لجهة عدم التخطيط لهجمات خارجية انطلاقاً من أفغانستان، ما يعرّض الدولة الوليدة آنذاك للخطر الماحق بسبب اتهامها بإيواء الإرهابيين.

(5) لم تكن كل الجماعات الجهادية العاملة تحت حماية دولة طالبان ملتزمة بالبرنامج الذي أعلنه بن لادن لجهة شنّ الحرب على أمريكا، لأولوية قتال العدو القريب لديها، لكن تداعيات غزو أفغانستان عام 2001، دفعت بعض تلك الجماعات إلى الانضمام إلى "القاعدة"، وأشهر تلك على الإطلاق جماعة التوحيد والجهاد بقيادة أبي مصعب الزرقاوي في العراق.

أما أسامة بن لادن[6]، فأصبح قائداً معنوياً في الأغلب الأعم، بؤرة رمزية شديدة الكثافة. وهو وإن لم يَعُد يدير شؤون "القاعدة" يوماً بيوم، أو عملية فأخرى، لكن بقاءه على قيد الحياة لأطول مدة ممكنة بعيداً عن عَسَس الاستخبارات وذراع القوات الخاصة، بثّ في شرايين "القاعدة" دفقات معنوية لا يستهان بها، لا سيما على مستوى التحريض والتجنيد والتمويل، وتلك المجالات الثلاثة ذات بُعد حيوي ومتعاضد، فيما مؤدّى الاستراتيجية

---

(6) هو ابن المقاول الشهير محمد بن عوض بن لادن الذي عمل حمّالاً في ميناء جدة القديم بعيد مجيئه من حضرموت اليمنية في حدود 1930، قبل أن يصبح أهم مقاولي المملكة العربية السعودية، بفضل جرأته وتعهده المشاريع الصعبة وتنفيذها حيث كسب ثقة الملك عبد العزيز وخلفائه. ومن أهم المشاريع التي تولاها توسعة الحرم المكي والمسجد النبوي، كما تكفل بإعادة بناء المسجد الأقصى بعد حرقه على يد صهيوني أسترالي عام 1969. ولد أسامة عام 1377هـ –1957م، لأم سورية، وهو الثالث والأربعون من حيث الترتيب، والحادي والعشرون من بين الذكور. عاش في جدة ودرس فيها حتى تخرّج من جامعة الملك عبد العزيز في الإدارة العامة، وقيل إنه يحمل شهادة في الهندسة المدنية، وفي الجامعة تعرّف إلى محمد قطب حيث كان يدرّس مادة الثقافة الإسلامية. تزوج من أقارب أمه وهو في سن السابعة عشرة وأنجب من زوجته الأولى معظم أبنائه. تتسم المرحلة الأولى من حياته بالغموض، لكن ما من شك أن صدام الإخوان المسلمين مع النظام البعثي في سوريا أواخر السبعينات كان له أثره على شخصية أسامة، لقرابة الدم من ناحية الأخوال، ولأن كثيراً من المهاجرين الإخوان لجأوا إلى المملكة للعيش فيها وفيهم علماء كبار. فما أن اجتاح الجيش السوفياتي أفغانستان أواخر عام 1979 حتى انتقل إليها وبدأ عمله في الإغاثة ليصبح فيما بعد ممولاً للجهاد وداعماً لوجيستياً، ثم مؤسّساً لمعسكرات خاصة للمتطوعين العرب، وأخيراً قائداً لتنظيم القاعدة عام 1988. ومن تلك اللحظة تبدّلت حياة أسامة بن لادن رأساً على عقب مبتعداً عن الأسرة الثرية وأعمالها الناجحة في المملكة، وليكون تدريجياً رمزاً للإرهاب العالمي، بعد لجوئه إلى السودان عام 1991 ثم عودته إلى أفغانستان عام 1994، وإعلانه الجهاد ضد الأمريكيين عام 1996، وتشكيله الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين عام 1998، وتشجيعه للعمليات الكبرى ضد مصالح أمريكية في كينيا وتنزانيا عام 1998، وضد المدمرة الأمريكية بعدن عام 2000، وأخيراً الهجوم على برج التجارة العالمي في نيويورك والبنتاغون في واشنطن عام 2001. قُتل في 2 أيار (مايو) عام 2011، في مقره السري بمدينة أبوت آباد البعيدة حوالي 60 كيلومتراً عن العاصمة الباكستانية إسلام آباد، على يد مجموعة من القوات الخاصة البحرية الأمريكية بعد مطاردة شرسة دامت أكثر من عقدين.

المفترضة لـ"القاعدة" أن تستمر عمليات الفرز والضمّ والتوسع من داخل الإطار إلى خارجه وبالعكس، من أجل أن تستوعب الفكرة مجمل السلفيين الجهاديين أولاً، ثم السلفيين التقليديين ثانياً، والإسلاميين الحَرَكيين ثالثاً، أي وفق الاتجاه الطبيعي للدوائر المتباعدة التي يُحْدثها سقوط الحجر في بركة مياه راكدة من المركز إلى الهوامش (انظر الشكل رقم 1)، حتى تَسَع الأمة كلها أو عمومها في نهاية المسار. على أنّ هذا ليس حتمياً، إذ اصطدمت "القاعدة" في مناسبات عدة بالدوائر السلفية القريبة منها (تقليديةً أو جهادية) فقاومتها بشدة، فضلاً عن التيار الإسلامي الأوسع، فيما وجدت أحياناً قبولاً سهلاً غير متوقع في الدوائر الأبعد، بل لدى غير المتديّنين أصلاً أو وسط المسلمين حديثاً، فتحوّل هؤلاء بقفزة نوعية هائلة من حياة غارقة في اللهو والعبث إلى أقصى الطرف الآخر.

ولَئِن كانت "القاعدة" مجرّد فكرة تجنِّد أشخاصاً وتسخِّر موارد، فمن الحريّ أن لا يكون التنظيم المفترض سوى شكل بالغ الهشاشة في أقل تقدير لا يقوى على الضغوط العسكرية والأمنية المباشرة، فيتفتّت إلى مكوّناته الأولى. أما في أفضل الأحوال، فهو نواة صغيرة جداً، لكن صلبة وعنيدة جداً، مكوّنة من الدعاة المتحمّسين والخبراء العسكريين الشديدي المِراس، القادرين في أحوال ملائمة على تشكيل جسم عسكري وأمني وإعلامي ضارب، متعدّد المهام والأجناس، مفارق للحدود واللغات، ومتجاوز للخلافات التكتيكية التي هي مجرّد تفاصيل في التيار الجهادي العام. وعلى هذا، فإن تنظيم القاعدة، وهو الاسم العفوي الذي سيصبح اسم الشهرة غير القابل للمحو أو الاستبدال بأيّ أسماء أخرى، مختلف في ظروف نشأته وأهدافه وأساليبه وطُرُق تطوّره عن أيّ تنظيم أو حركة أو جماعة، سواء أكانت إسلاميةً أم لا، سلفيةً أم لا.

لكن ما معنى "القاعدة"؟ وما مغزى الاسم؟ وما صحة نسبته؟ هل برز الاسم مترافقاً مع لحظة التأسيس أم متراخياً عنها؟ هل هو الاسم الإعلامي أي اسم الشهرة وتبنّاه التنظيم لاحقاً أم هو اسم أطلقته الأجهزة الأمنية الأمريكية للتمييز بينه وسواه من التنظيمات ذات المنبع الأيديولوجي الواحد أو المتشابه؟ وهل توجد علاقة بين الاسم والمسمى مما يرجّح ولو مؤقتاً

فرضية الاسم المختار عن قصد ووعي بالمهمة الملقاة على عاتق التنظيم، أم أنّ كلمة (القاعدة) حمّالة الأوجه لغوياً واصطلاحياً[7]، قد تطابقت من غير قصد مع التنظير الأصلي للقاعدة المسلمة، ابتداء مع سيّد قطب[8] وأخيه محمد[9]،

(7) القاعدة في اللغة: الأساس، وجمعها قواعد، سواء كان الأساس حسياً كقواعد البيت، أو معنوياً كقواعد الدين أي دعائمه. والقاعدة في الاصطلاح: قضية كلية منطبقة على جميع جزئياتها، واختلف الفقهاء في تعريف القاعدة الفقهية، والسبب في اختلافهم هو: هل تعتبر القواعد كلية أو أمراً كلياً؟ لأن الكلية هي الحكم على جميع الأفراد فرداً فرداً أي الحكم على كل جزء من أجزاء القاعدة فلا يخرج عن القاعدة أدنى شيء، أما الكلي فهو الحكم على المجموع أو الحكم الأغلبي فيخرج عن القاعدة بعض الأمور، وهذا هو الصحيح لأن بعض الجزئيات قد تشذّ وتخرج عن القاعدة، انظر: عبد الله جاسم كردي، القاعدة الفقهية: العادة محكمة وتطبيقاتها في فقه الزواج.

(8) هو سيّد قطب إبراهيم حسين الشاذلي (9 تشرين الأول/أكتوبر 1906–29 آب/أغسطس 1966م) كاتب وأديب ومنظّر إسلامي مصري، كان عضواً في مكتب إرشاد جماعة الإخوان المسلمين ورئيساً لقسم نشر الدعوة في الجماعة ورئيس تحرير جريدة الإخوان المسلمين. وُلد في بقرية موشة وهي إحدى قرى محافظة أسيوط. يعتبر من أكثر الشخصيات تأثيراً في الحركات الإسلامية منتصف القرن الماضي، له مؤلفات وكتابات أدبية وفكرية تتوزّع نوعياً على مرحلتين ما قبل انضمامه إلى الجماعة وما بعدها. التحق بجماعة الإخوان المسلمين بعد سنوات قليلة من اغتيال البنّا، منتقلاً من موقعه كأحد المقربين من الضباط الأحرار إلى موقع خصمهم اللدود. فاعتقل وعُذّب بعد حادثة المنشية (محاولة اغتيال عبد الناصر) عام 1954، ولم يفرج عنه سوى بعد عشر سنوات، ليعود إلى المعتقل مرة أخرى، ويُحكم عليه بالإعدام شنقاً عام 1966.

(9) هو أخو سيّد قطب وظلّه وشارح أفكاره عبر سلسلة طويلة من الكتب الفكرية التي طبعت الحركة الإسلامية المعاصرة بطابعها رغم عدم اندراجه رسمياً في جماعة الإخوان المسلمين. ولد عام 1919، وفي القاهرة بدأ الفتى محمد دراسته، فأتمّ المرحلتين الابتدائية والثانوية، ثم التحق بجامعة القاهرة حيث درس اللغة الإنكليزية وآدابها، وكان تخرّجه منها عام 1940. تابع الدراسة في معهد التربية العالي للمعلمين فحصل على دبلومها في التربية وعلم النفس. يقرّ محمد أن أعظم الناس تأثيراً في حياته كلها هو أخوه سيّد، الذي كان يتقدّمه في السنّ، فهو الذي أشرف على تعليمه وتوجيهه وتثقيفه، وكان بالنسبة إليه بمثابة الوالد والأخ والصديق. ويقول: "لقد عايشت أفكار سيّد ـ رحمه الله ـ بكل اتجاهاته منذ تفتح ذهني للوعي، ولما بلغت المرحلة الثانوية جعل يشركني في مجالات تفكيره، ويتيح لي فرصة المناقشة لمختلف الموضوعات، ولذلك امتزجت أفكارنا =

ومروراً بعبد الله عزّام[10]، وانتهاء مع أسامة بن لادن؟ وما علاقة "القاعدة" كفكرة أو كتنظيم بالمجاهدين العرب في أفغانستان، المعروفين إعلامياً

= وأرواحنا امتزاجاً كبيراً، بالإضافة إلى علاقة الأخوة والنشأة في الأسرة الواحدة، وما يهيئه ذلك من تقارب وتجاوب". اعتقل محمد وعُذّب عندما اعتقل سيّد في الستينات من القرن الماضي، وبعد خروجه من السجن هاجر إلى السعودية، فانخرط في التعليم الجامعي حيث أشرف على عدد من رسائل الدكتوراه فتأثر به جيل كامل من أبناء الصحوة الإسلامية. وكان أسامة بن لادن أحد طلابه في جامعة الملك عبد العزيز بجدة في مادة الثقافة الإسلامية، وكانت آنذاك مادة إلزامية في الجامعات السعودية. وإذا كان سيّد قطب هو الملهم الأول للجماعات الإسلامية، والجهادية منها على وجه الخصوص، فإن أخاه محمد صاحب مدرسة إسلامية متميزة تقف في منتصف الطريق بين التغيير السلمي عبر صناديق الاقتراع (نهج الإخوان) والتغيير بالقوة عبر الخروج على الحُكّام (نهج التيار الجهادي).

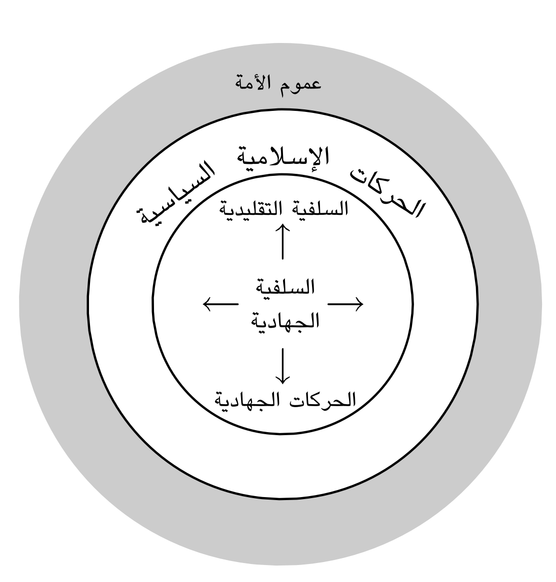
(10) ولد عبد الله عزام في قرية سيلة الحارثية التابعة لبلدة جنين في فلسطين عام 1360هـ–1941م. تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي في مدارس طولكرم. واصل تعليمه بكلية "خضورية الزراعية" ونال منها الدبلوم بدرجة "امتياز" ثم عمل في سلك التعليم. انتسب إلى كلية الشريعة في جامعة دمشق، ونال منها شهادة الإجازة في الشريعة بتقدير جيد جداً عام 1966. لكنه هاجر إلى الأردن بعد هزيمة 1967 حيث شارك في عمليات مقاومة الاحتلال الإسرائيلي من (قواعد الشيوخ) التي أنشاتها منظمة التحرير الفلسطينية بالتنسيق مع الحركة الإسلامية في الأردن، وكان عزام أميراً لقاعدة بيت المقدس. خاض معارك عدة منها معركة الحزام الأخضر ومعركة 4 حزيران (يونيو) 1970، ثم معركة سيّد قطب. انتسب إلى الأزهر فحصل على شهادة الماجستير في أصول الفقه بتقدير "جيد جداً" وعاد إلى الأردن ليعمل مدرّساً في كلية الشريعة بعمان، وبُعث من قبل الكلية إلى الأزهر للحصول على شهادة الدكتوراه في أصول الفقه حيث نالها في فترة قياسية وبدرجة الشرف الأولى، وفي مصر تعرّف إلى عائلة سيّد قطب وعرف الكثير عن حياته. في عام 1980 صدر قرار الحاكم العسكري الأردني بفصله من عمله في الكلية، فانتقل إلى السعودية للتدريس في جامعة "الملك عبد العزيز" بجدة. أعير إلى الجامعة الإسلامية الدولية بإسلام آباد للتدريس حسب طلبه ليكون قريباً من الجهاد الأفغاني، بعد انتهاء مدة الإعارة رفضت جامعة "الملك عبد العزيز " تجديد العقد، فقدّم استقالته وتعاقد مع رابطة العالم الإسلامي. بدأ الشيخ في العمل مع المجاهدين الأفغان عام 1982، وأسس عام 1984 "مكتب الخدمات". ثم قدّم استقالته من الجامعة الإسلامية بإسلام آباد، وتفرّغ للجهاد الأفغاني. وفي 1989/11/24 وبينما كان في طريقه إلى مسجد "سبع الليل" في بيشاور لإلقاء خطبة الجمعة انفجرت بسيارته عبوة ناسفة فقُتل.

بـ"الأفغان العرب"؟ وهل بن لادن امتداد لعبد الله عزّام أم انقطاع عنه؟ واستطراداً، هل تضمّ "القاعدة" عشرات الآلاف من مختلف الجنسيات الذين تدرّبوا في أفغانستان خلال قتال السوفيات، ومعهم أعداد غير محدّدة ممن تقاطروا إلى "القاعدة" في مراحل لاحقة بعد الانسحاب السوفياتي وسقوط النظام الشيوعي في كابل، أم لا تحوي سوى عشرات أو مئات ممن بايعوا قائدهم الجديد بعد اغتيال عزّام، فيما تفرّقت غالبية "الأفغان العرب" في أنحاء المعمورة، وانقطعت صلتهم نهائياً بالمشروع الجهادي؟ وهل "القاعدة" أخيراً إطار هيكلي تنصهر فيه الجماعات المتشابهة المنبت والهدف والأسلوب، أم هي غطاء فضفاض لمجموعات متفاوتة في التشدّد وكذلك في الأسلوب؟ وبعد قتل بن لادن في باكستان في 2 أيار (مايو) 2011، وتزامن ذلك مع ثورات الربيع العربي، هل نشهد انقلاباً في استراتيجية "القاعدة"، وقوفاً للهَرَم من وضعه المعكوس، أيّ من أولوية ضرب العدو البعيد إلى استهداف العدو القريب (ليبيا مثالاً)؟ وبعد أن كانت "القاعدة" تسعى قبل ذلك لأن تكون طليعة الأمة، فما دورها الآن وقد اضطلعت الجماهير بدورها الطبيعي في التغيير؟

إنّ مجال هذا البحث ينحصر في استقصاء الجِذْر الفكري والأيديولوجي لـ"القاعدة" في الأدبيات السائدة للحركة الإسلامية عامة، منذ منتصف القرن العشرين، من أجل رصد التطوّر المفهومي للتغيير ومساراته ووسائله عبر سلسلة مترابطة فكرياً وشعورياً من سيّد قطب إلى أسامة بن لادن وما بينهما. ويهدف البحث إلى إثبات الفَرَضية القائلة بأن "القاعدة" كفكرة أصلية على الأقل، هي امتداد طبيعي لمسار الحركة الإسلامية عموماً في مرحلة ما بعد سقوط الخلافة العثمانية، وهي كذلك استجابة مباشرة للتجارب الأليمة والانتكاسات المدمّرة التي مرّت بها الحركة الإسلامية في مواجهة الأنظمة الحاكمة. لكن هذا المسار لم يكن حتمياً أو ضرورياً، إذ كان ممكناً إزاء التحديات ذاتها أن يتحوّل إلى اتجاه مختلف، لولا العوامل الخارجية التي كان لها دور حاسم في ظهور الصيغة التنظيمية الأخيرة. أما المنهج المتوائم مع طبيعة الموضوع، فهو تحليل المضمون لأبرز نصوص منظّري الحركة الإسلامية بشكل عام، والمقارنة فيما بينها بما يدلّ على

تطوّر الفكرة نفسها من داخل أدبيات الحركة الإسلامية نفسها، مع تأثّرها بالوقائع والأحداث والتجارب، حتى لحظة التشكّل النهائي على صورة تنظيم أممي غير مسبوق في أهدافه وأساليبه، وغير معهود في استراتيجياته وتكتيكاته.

ويتألّف البحث من مقدمة وخمسة مطالب وخاتمة، ففي المقدمة طرحٌ عام لجملة الإشكاليات والأسئلة المطروحة، وفيما يتناول المطلب الأول ظروف النشأة الأولى للتنظيم وملابساتها مع محدودية المصادر المتاحة بشأن تلك الفترة، وسريّة العمل من جانب المؤسّسين، فإن المطالب الأخرى تَسْبُر الأصول الأيديولوجية للتنظيم مع استكشاف الفروق في تشخيص الطليعة الإسلامية التي تتولى عبء التغيير ومهمة بناء المجتمع والدولة. أما الخاتمة فتعرض الاستنتاجات بخصوص نشأة مفهوم "القاعدة"، ودور الأدب الحَرَكي العام كما تجارب الواقع المعاش في إنضاجه، وتشكيل مضامينه الفكرية والتنظيمية والاستراتيجية.



الشكل رقم (1)

المطلب الأول: تأسيس "القاعدة"

لعلّ تنظيم "القاعدة" هو الأول من نوعه في التاريخ، ليس فقط من حيث استهدافه القوة الأولى في العالم بهذه الطريقة الصارخة، باستخدام طائرات مدنية ضد أبراج تجارية، بل لاعتماده الغموض المطلق في الإعلان عن نفسه، فكانت أعماله تسابق أقواله، وكان اسمه من الألغاز غير المفهومة، حتى كثرت التكهّنات، واضطربت آراء الباحثين في تحديد مغزاه الحقيقي. فالباحث السريلانكي روهان غونراتنا (Rohan Gunaratna)[11]، يعتقد أنّ "القاعدة" هي التطبيق العملي لفكرة أطلقها عبد الله عزّام قبيل أشهر من التأسيس الأول حيث جاء الاسم مستلهَماً من تنظيره لما سمّاه بـ"القاعدة الصلبة"[12]، وسار على منواله كثير من الخبراء في شؤون الإرهاب. وبرّر غونراتنا عدم استخدام اسم القاعدة إطلاقاً في كل البيانات الصادرة عن التنظيم، وإلى حين وقوع هجمات 11 أيلول (سبتمبر) 2001، بالسريّة الشديدة التي التزمها كأسلوب عمل، حيث استخدم أسماء أخرى، مثل الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين [والجيش الإسلامي لتحرير المقدّسات]، رغم أنّ التنظيم لم يكن يرغب بالتأكيد أن يبقى مجهولاً[13].

بالمقابل، ينظر جايسون بيرك (Jason Burke)[14] إلى التنظيم بطريقة مختلفة، فلو كان موضوع البحث تنظيماً تقليدياً له قائد مطاع وأنصار

---

(11) هو أستاذ جامعي ومتخصّص بشؤون الإرهاب الدولي، وقد عمل في مركز دراسات الإرهاب والعنف السياسي في جامعة سانت أندروز باسكوتلندا، كما عمل في قسم تجنّب الإرهاب في منظمة الأمم المتحدة، واستطاع من موقعه إجراء مقابلات دامت مئات الساعات مع أكثر من 200 إرهابي وبينهم أعضاء في "القاعدة"، خلال خمس سنوات، في بلدان شتى في آسيا وإفريقيا والشرق الأوسط، حيث التقى قيادات من مختلف المراتب في جماعات جهادية، واستطاع الوصول إلى معتقلين بشبهة الإرهاب باعتباره مستشاراً أمنياً لعدد من الدول.

(12) Rohan Gunaratna, Al-Qaida au Coeur du premier réseau terroriste mondial, traduit de l'anglais par Laurent Bury, AutrementFrontières, 2002, p.7-8.

(13) Ibid., p.7.

(14) كاتب بريطاني، مراسل صحيفة الغارديان والأبزرفور في جنوبي آسيا، وله مؤلفات متخصّصة عدة، مثل "القاعدة، القصة الحقيقية للإسلام الراديكالي" =

يتّبعون الأوامر، فلا وجود إذاً لـ"القاعدة"، لكن المسألة أكثر خطورة وتعقيداً، بحيث لا توجد عبارة ملائمة للتوصيف والتصنيف، حتى كأن استخدام لفظ القاعدة هو للعجز عن اجتراح اسم آخر(15). ويقول بيرك إنّ بن لادن قرّر عام 1988 في مدينة بيشاور الباكستانية مع عدد من المقرّبين منه تنفيذ اقتراح عزّام بخصوص تأسيس جيش إسلامي أممي يتولى الدفاع عن المسلمين المضطهدين في أيّ مكان من العالم، وكان السوفيات قد أعلنوا عن رغبتهم بالانسحاب في ذلك العام، وبدأت تتلاشى وحدة الهدف التي جمعت المجاهدين العرب خلال تلك السنوات. فكانت البداية ببضعة عشر رجلاً لا يمكن تمييزهم من بين الوافدين إلى باكستان وأفغانستان في تلك الفترة، والذين يتجمّعون ثم يتفرّقون في أوقات مختلفة. لكن هؤلاء الأوائل لم يسمّوا أنفسهم في تلك المرحلة بهذا الاسم، رغم أنّ أتباع بن لادن كانوا يُعرفون مطلع 1990 بأنها جماعة القاعدة(16)، فيما لم تحتوِ "موسوعة الجهاد" التي وُضعت في باكستان ما بين 1991 و1993، وتضمّ في مجلداتها الإحدى عشرة زبدة التجربة الأفغانية من حيث الأساليب والتقنيات القتالية، أيّ إشارة إلى "القاعدة"، فهي في المقدمة تمدح عزّام وبن لادن، وتذكر "مكتب الخدمات" الذي كان بإدارة عزّام(17)، حيث تمثّلت مهمته باستقبال المتطوعين والقيام بأعمال الإعلام والتثقيف والتمويل والإغاثة(18).

وبعد اغتيال عزّام في بيشاور عام 1989 عاد بن لادن إلى السعودية،

= عام 2004، "وفي الطريق إلى قندهار، رحلات أثناء الصراع في العالم الإسلامي" عام 2006، و"حروب 9/11" عام 2011.

(15) Jason Burke, Al-Qaeda The true story of Radical Islam, Penguin books, London, p.1.

(16) أشار بن لادن في الحوار الشهير الذي أجراه مع مراسل الجزيرة في أفغانستان تيسير علوني عقب بدء الحملة الأمريكية ضد طالبان خريف عام 2001، إلى أن شيوع اسم القاعدة يعود إلى القاعدة العسكرية التي أنشأها هو حيث كان يتدرّب المتطوّعون.

(17) Burke, Al-Qaeda, op. cit. p.3.

(18) انظر: محمود سعيد عزّام، الدكتور الشهيد عبد الله يوسف عزّام، شيخي الذي عرفت، 2012، ص39–46.

ثم انتقل إلى السودان عام 1991 رغم منعه رسمياً من السفر، وبقي فيه حتى عام 1994، حيث عاد إلى أفغانستان في زمن صعود طالبان. وأعلن الجهاد في عام 1996 على الأمريكيين بسبب نزولهم في قواعد عسكرية بالمملكة العربية السعودية إبان حرب تحرير الكويت، ثم أعلن عن تأسيس الجبهة الإسلامية العالمية لقتال اليهود والصليبيين عام 1998، ولم يُذكر بن لادن في كل تلك المحطات إلا باسمه الشخصي لا على أنه قائد تنظيم اسمه "القاعدة". وبالمقابل لم تذكر الاستخبارات الأمريكية "القاعدة" لأول مرة سوى عام 1996 كاسم مرادف لجبهة الإنقاذ الإسلامية حسب التقرير آنذاك، والتي تهدف إلى دعم المجاهدين في أفغانستان، فيما عُرِف بن لادن في تلك الفترة في الأوساط الدبلوماسية والأمنية الأمريكية على أنه مموّل سابق للجهاد الأفغاني. وإلى مطلع عام 1998 حين جاء في تقرير للخارجية الأمريكية أنّ "القاعدة" هي شبكة عمليات للمتطرّفين السنة. وبعد ضرب السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا في آب (أغسطس) من العام نفسه، تحدّث الرئيس السابق بيل كلينتون عن مسؤولية "القاعدة" كشبكة وليس كتنظيم. وبما أنّ تحقيقات الأمن الفدرالي الأمريكي تستند إلى قوانين تتعامل حصراً مع مجموعات ذات هيكلية محدّدة لتحديد المسؤوليات الجنائية عن أفعالها، فقد اعتمدت على شهادة السوداني جمال الفضل[19] وهو عضو سابق في "القاعدة" في أول محاكمة من نوعها بدأت مطلع عام 2001[20] للتأكيد على وجود تنظيم هَرمَي على رأسه بن لادن[21]. وهذه الشهادة كما

(19) تطوّع في الجهاد الأفغاني عبر مسجد الفاروق في بروكلين أثناء إقامته في الولايات المتحدة منتصف ثمانينات من القرن الماضي، ولاحقاً أصبح مسؤولاً عن المشتريات في تنظيم القاعدة، وكان له دور أساسي في هذا المضمار أثناء مكوث التنظيم في السودان في التسعينات. اكتشف بن لادن اختلاس جمال الفضل لمبلغ قدره 110 آلاف دولار فطالبه به، لكن الفضل فضّل الانشقاق عن القاعدة والعمل كمخبر للاستخبارات الأمريكية.

(20) UNITED STATES OF AMERICA 4 v. S(7) 98 Cr. 1023,5 USAMA BIN LADEN, et al., 6 Defendants, New York, N.Y. 9 February 7, 2001, 10:00 a.m.

(21) Burke, Al-Qaeda, op. cit. p.4-7.

يقول بيتر بيرغن (Peter Burgen)[22] كانت الأساس في وضع تصوّر متكامل عن تنظيم "القاعدة"، وبنيته الهيكلية، ومهام لجانه المتخصّصة[23].

فكيف تأسّست القاعدة إذاً؟ ومن كان المؤسّسون؟ وما كانت الأهداف المرسومة؟

يورد لورنس رايت (Lawrence Wright)[24] رواية هي الأكثر تفصيلاً عن تأسيس "القاعدة" استقاها من ملف يضمّ ملاحظات ورسائل في حاسوب مصادَر في البوسنة، حيث أُطلق على الملف اسم "تاريخ أسامة"[25] إضافة إلى مصادر أخرى. يقول رايت إنّ عبد الله عزّام دعا إلى اجتماع في 11 آب (أغسطس) عام 1988، للتدارس بشأن مصير الجهاد بعد أفغانستان. وكان من بين الحاضرين أسامة بن لادن إضافة إلى أبي حفص المصري (محمد عاطف)[26] وأبي عبيدة البنشيري (أمين علي

(22) كاتب وصحافي أمريكي من أصل بريطاني، أجرى المقابلة التلفزيونية الأولى مع بن لادن عام 1997 لحساب شبكة سي أن أن، وهو محلّل الأمن القومي في الشبكة نفسها، ومدير برنامج دراسات الأمن القومي في مؤسسة أمريكا الجديدة، وأستاذ محاضر في عدد من الجامعات الأمريكية. صدرت له أربعة كتب هي: "الحرب المقدسة: داخل العالم السريّ لمجموعة أسامة بن لادن"، عام 2001، و"أسامة بن لادن كما أعرفه"، عام 2006، و"الحرب الأطول: الصراع المستمر بين أمريكا والقاعدة" عام 2011، و"مطاردة رجل: عشر سنوات من البحث عن بن لادن من 9/11 إلى أبوت آباد" عام 2012.

(23) Peter Bergen, Holy War, inside the secret world of Osama bin Laden inc., Phoenix, London, 2002, p. 62-63.

(24) كاتب أمريكي من فريق عمل مجلة النيويوركر، وأستاذ مشارك في مركز القانون والأمن التابع لمعهد نيويورك لدراسة القانون، وهو حائز على جائزة بولتزر للصحافة، وله مؤلفات عدة، لكن كتابه الأشهر لعام 2006 هو: "البرج الآيل للسقوط: القاعدة والطريق إلى 9/11". ورغم أن رايت يؤكد اعتماده على مصادر كثيرة في تاليف كتابه المذكور، إلا أنه يعتبر أنّ القصة الكاملة لـ"القاعدة" لم تُكتب بعد، بسبب منع السلطات الأمريكية الاتصال بعناصر بارزة من التنظيم هي قيد الاعتقال السري أو العلني.

(25) رقم الوثيقة: AFGP-2002-000078

(26) اسمه الحقيقي صبحي عبد العزيز أبو ستة الجوهري، ولد بمصر عام 1958، هو مهندس زراعي مصري من مدينة كفر الدوار بمحافظة البحيرة بمصر، =

الرشيدي)[27] وأبي هاجر العراقي (ممدوح سالم)[28] والدكتور فضل (سيّد إمام الشريف)[29]

= وعمل كضابط احتياط بالجيش المصري برتبة ملازم أول. التحق مطلع الثمانينات بالجهاد في أفغانستان، فنقل خبرته إلى المعسكرات وأشرف على دورات التدريب وكان من ضمن المؤسّسين الأوائل لتنظيم القاعدة، وكان له دور في تقديم الإسناد في معارك مقديشو ضد المارينز الأمريكي بين عامي 1992 و1993. أصبح القائد العسكري للتنظيم بعد غرق أبي عبيدة البنشيري في بحيرة فيكتوريا عام 1995. قُتل في غارة أمريكية بأفغانستان في 2001/11/16.

(27) اسمه الحقيقي علي أمين الرشيدي وكان أمين شرطة بالشرطة المصرية ومدرّب مصارعة بنادي الشرطة بالقاهرة، وكان عضواً في مجموعة نبيل المغربي القيادي المشهور أحد مؤسسي تنظيم الجهاد المصري الذي اغتال السادات بقيادة محمد عبد السلام وعبود الزمر. اعتقل أبوعبيدة البشيري مع نبيل المغربي وعبود الزمر إثر اغتيال السادات عام 1981، وظل في السجن حتى أفرج عنه مع أيمن الظواهري وآخرين عام 1984، وسافر بعدها إلى أفغانستان حيث قاتل في صفوف الأفغان واكتسب خبرات عسكرية واسعة بالإضافة لخبراته السابقة في تنظيم الجهاد المصري، حتى قيل إن خبراته صارت تعادل خبرات لواء جيش، حيث قاد العديد من المعارك الكبرى ضد الجيش السوفياتي في أفغانستان. وعندما سعى بن لادن لتأسيس القاعدة ترك كل الأمور التنظيمية والعسكرية لعلي الرشيدي (أبي عبيدة البنشيري)، حيث ظل يقود القاعدة في أفغانستان ثم في السودان كما قاد أعمالها الاقتصادية الزراعية في السودان إلى أن غرق عام 1995 في بحيرة فيكتوريا بكينيا أثناء إحدى رحلاته لبناء قواعد للتنظيم في إفريقيا.

(28) ولد عام 1958، سوداني من أصل عراقي. شارك في تأسيس القاعدة عام 1988، واحتل فيها عضوية مجلس الشورى. أدار معسكرات التدريب والمضافات في أفغانستان وباكستان، وكان مسؤولاً عن شراء المواد المتفجرة ووسائل الاتصالات. سافر بتكليف من القاعدة إلى ماليزيا والصين والفليبين وألمانيا حيث اعتقل قرب مدينة ميونيخ بألمانيا عام 1998 وسلّم إلى الولايات المتحدة، وهناك حوكم بتهمة الاشتراك في تفجير السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا لعام 1998.

(29) اسمه الحقيقي سيّد إمام الشريف، ولد عام 1950 في مدينة بني سويف جنوبي القاهرة. كان متفوقاً في دراسته حتى تخرّج من كلية الطب بجامعة القاهرة عام 1974 وكان من الأوائل، حيث عُيّن في قسم الجراحة في الكلية نفسها (قصر العيني). اتهم في قضية تنظيم الجهاد الكبرى في 1981 (اغتيال الرئيس أنور السادات) فاضطر للسفر عام 1982 والعمل فترة قصيرة في الإمارات، ثم سافر للخدمة الطبية في الجهاد الأفغاني من عام 1983 حتى 1993 حين أبعدت باكستان المجاهدين العرب فانتقل إلى السودان عدة أشهر، ثم إلى اليمن عام 1994، =

ووائل جليدان[30]. وكان عزّام يهدف إلى تجنيب العرب التورّط في الحرب الأهلية الأفغانية بعد الانسحاب السوفياتي، إذ بعد توزّع المتطوّعين على مختلف المعسكرات التابعة للفصائل الأفغانية المتناحرة، فإنّ أيّ قتال بين الأفغان سيتحوّل إلى كارثة على المجاهدين العرب. لكن الاجتماع كما يبدو من ملاحظات أبي رضا السوري (محمد لؤي بايزيد)[31] كان يحدوه هاجس

= وعمل جراحاً فيها حتى اعتقل هناك في 2001/10/28 في أعقاب أحداث 11 أيلول (سبتمبر) ثم سلمته اليمن إلى مصر عام 2004. وفي السجن أطلق مراجعاته الشهيرة لفكر الجهاد تحت اسم "ترشيد الجهاد في مصر والعالم". ورغم ما قيل إنه كان أول أمير لتنظيم الجهاد المصري قبل الظواهري، إلا أن الشريف ينفي عضويته التنظيمية بأي جماعة، وهو إلى ذلك صاحب كتابي "العمدة في أحكام العدة" و"الجامع في طلب العلم الشريف" وهما من أهم مراجع الحركات الجهادية المعاصرة. لكن منتصر الزيات يقول إن الشريف شارك في تأسيس أول خلية جهادية عام 1968 مع أيمن الظواهري، ثم تولى إمارة جماعة الجهاد التي تكونت في بيشاور 1989، إلا أنه عندما خُيّر بين الشرع والإدارة، اختار العلم الشرعي وترك الإدارة والإمارة طوعاً، انعزل عن الإمارة وهو يمارسها فعلاً فجعل الاختصاص لصديقه ورفيقه الدكتور أيمن الظواهري، انظر: جردية المصري اليوم، السبت 17 نوفمبر 2007 العدد 1252.

(30) ولد عام 1958 في المدينة المنورة، وكان رئيساً لمركز توسكون الإسلامي بولاية أريزونا الأمريكية بين عامي 1984و1985. وفي عام 1986 رحل إلى أفغانستان لقتال السوفيات، وهو من مؤسسي مكتب الخدمات إلى جانب عبد الله عزام وأسامة بن لادن، قبل أن يشارك في تأسيس تنظيم القاعدة عام 1988 حسب ما جاء في كتاب رايت، لكن جريدة الشرق الأوسط تنقل معلومات مغايرة تقول فيها إن جليدان الذي عمل في المجال الإغاثي في أفغانستان وفي البوسنة، اختلف مع بن لادن رافضاً تشكيل تنظيم عربي في أفغانستان. انظر جريدة الشرق الأوسط، الأحد 01 رجب 1423هـ 8 سبتمبر 2002م العدد 8685.

(31) سوري يحمل الجنسية الأمريكية، بدأ دراسة الهندسة في جامعة ميسوري ثم انتقل إلى جامعة أريزونا، وفي عام 1985 قرّر المشاركة في الجهاد الأفغاني، حيث كان شاهداً على ولادة "القاعدة" عام 1988، مدوّناً ملاحظات عن الاجتماع الشهير في 11 آب (أغسطس) من ذلك العام. سافر في السودان وعمل في شركات بن لادن، ومع خروج التنظيم من السودان عام 1994 عاد بايزيد إلى الولايات المتحدة وعمل في منظمة خيرية. تعرّض للاستجواب بعد عمليات عام 1998 و2001، وطُلب منه التعاون في الحرب على الإرهاب، وفي عام 2003 التقى الكاتب لورنس رايت حيث زوده بمعلومات عن نشأة التنظيم. وحسب تقرير الأف بي آي، فإن بايزيد يتحدث الفارسية والصينية والإنكليزية والعربية، وكان =

أساسي هو دراسة الخطوة التالية بعد مرور أكثر من عام على تأسيس بن لادن لقاعدة "مأسدة الأنصار"، وهي أكثر بقليل من معسكر تدريب. وأثناء الاجتماع، قال بن لادن رداً على سؤال: "لستُ سوى رجل واحد، ونحن بدأنا لا كتنظيم ولا كجماعة إسلامية، ومضت سنة ونصف السنة، وكانت فترة تربية وبناء ثقة واختبار للإخوة الوافدين، كما كانت فترة لإثبات الذات أمام العالم الإسلامي. ورغم أني بدأتُ بهذا العمل في أصعب الظروف لكن حققنا مكاسب كبيرة". وبعد نقاش وتداول، جرى اقتراع بين المجتمعين على تأسيس تنظيم جديد من أجل إبقاء الجهاد قائماً بعد انسحاب السوفيات من أفغانستان، وجرى الاتفاق على تدريب 314 شخصاً خلال ستة أشهر. ثم عُقد اجتماع آخر في 20 من الشهر نفسه، لتأسيس القاعدة العسكرية وتشكيل مجلس الشورى واللجان المتخصّصة حيث قُسم العمل القتالي إلى نوعين: مؤقت ودائم، فالمتطوعون العرب عامة يقاتلون في الجبهات الأفغانية حتى نهاية الحرب، أما أفضل المقاتلين فيخضعون لاختبار معيّن قبل ضمّهم إلى "القاعدة" والبقاء في ساحة الجهاد حتى وقت غير محدّد. ولا يعني هذا أنّ "القاعدة" تأسّست منذ ذلك الاجتماع، كما يشير رايت، بل كانت قائمة قبل هذا التاريخ في دائرة أضيق[32].

= من مجموعة أبي مصعب السوري أحد قيادي الطليعة المقاتلة التي اصطدمت مع النظام السوري في الثمانينات من القرن العشرين.

16981200-T1-B24-Various-Interrogation-Reports-Fdr-4298-FBI-Investigation-Source.pdf

(32) Lawrence Wright, The Looming Tower Al-Qaeda and the Road to 9/11, Alfred A. Knopf, 2006, p.131-133.

مع ذلك يؤكد رايت أن هذه الرواية لا تجلو الغموض تماماً، فقد التقى أبا رضا السوري في الخرطوم ونفى وجوده في أفغانستان أو باكستان في ذلك التاريخ، فيما أكد وائل جليدان عبر وسيط أن عزّام هو الذي دعا إلى الاجتماع المذكور، وزوّده بأسماء المشاركين فيه، وكيفية الاقتراع على تأسيس "القاعدة"، وهذه المعلومات لم تكن متوافرة في الملف المصَادر، أما مدني الطيب وهو مسؤول مالي في التنظيم فقد أخبر رايت أنه انضم إليه في شهر أيار (مايو) من العام نفسه، أي قبل انعقاد الاجتماع ما يدلّ على وجود القاعدة فعلاً قبل ذلك: Ibid. p. 448 وعلى هذا، يمكن الجمع بين هذه والرواية الأخرى والتي تؤكّد أنّ =

وبحسب وثيقة أخرى مصَادرة من المعسكرات في أفغانستان بعد سقوط حركة طالبان، فقد جرى تعريف القاعدة على أنها طائفة من أمة محمد ﷺ عقيدتها عقيدة أهل السنة والجماعة كما فهمها السلف الصالح، وتتبنى الجهاد منهجاً في التغيير لتكون كلمة الله هي العليا، وتسعى للتحريض عليه، والإعداد له، ومباشرته عملياً ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

وتذكر الوثيقة أنّ من الأهداف العامة للتنظيم بثّ الحسّ الجهادي في الأمة، وإعداد الكوادر وتهيئتها للعالم الإسلامي بالتدريب والمشاركة القتالية عملياً، ودعم الحركات الجهادية في العالم ومساندتها وتأييدها حسب الاستطاعة، والتنسيق بين الحركات الجهادية في العالم الإسلامي سعياً لإيجاد حركة جهادية عالمية موحدة.

أما في السياسات العامة، فتذكر الوثيقة أنّ المنهج المعتمد هو جهادي قتالي ولا علاقة له بالأعمال الإغاثية (في تمييز للتنظيم عن مكتب الخدمات)، وأنه يتبرّأ من طواغيت الأرض ومن الأحزاب العلمانية والقومية وما شاكلها حيث لا التقاء معهم على أنصاف الحلول ولا مجال للحوار معهم أو المداهنة لهم، وأنه يتعاون مع الجماعات والحركات الإسلامية الجهادية الصادقة مع المحاولات المستمرة للوحدة والاندماج ولا أقلّ من التنسيق معهم وعدم معاداتهم. وتسود العلاقة مع الحركات الإسلامية غير الجهادية المحبةَ والمودة والنصح وإقرار ما عندهم من خير وبيان ما عليهم من أخطاء، أما العلاقة مع العلماء العاملين فتتصف بالمحبة والاحترام والتقدير والأخذ عنهم والردّ عليهم في حال وجود أخطاء. ويتبنى التنظيم الاستقلالية التامة وعدم التبعية لأيّ جهة، ونبذ الإقليمية والتعصب كما الجهاد في أيّ مكان، والاهتمام بدور الشعوب المسلمة في الجهاد، والسعي لتحريكها وكسبها

= القاعدة المقصودة هي سجّل المعلومات الذي أنشأه بن لادن لتدوين أسماء المجاهدين العرب الوافدين إلى المضافات والمعسكرات وتحديد التعويضات المالية لأسر الشهداء وما إلى ذلك، ما يمكن أنها كانت الخطوة التنظيمية الأولى، والتي تطوّرت لاحقاً إلى إقامة معسكرات مستقلة، وصولاً إلى تنظيم "القاعدة" المشهور.

لتكون في الصف الجهادي لأنها وقود المعركة، والمحافظة على الاستقلالية اقتصادياً وعدم الاعتماد على الغير. ويعتمد التنظيم على السريّة كأصل في العمل وعدم البوح بشيء إلا لحاجة(33).

وإذا كان هذا هو المسار المتعرّج لتأسيس "القاعدة" تنظيمياً، فما هي الأصول الفكرية التي قامت عليها، وهل "القاعدة" هي المرحلة الأخيرة من تطوّر مفهوم "الطليعة" التي تناولها كلٌّ من سيّد قطب وأخيه محمد ثم عبد الله عزّام؟

المطلب الثاني: سيّد قطب و"التجمع الحَرَكي"

يُعتبر الأديب والكاتب سيّد قطب المنظّر الأكثر تأثيراً في الحركة الإسلامية عامة، وفي الجماعات الجهادية خاصة، فقد اقتبس مفهوم الحاكمية الإلهية من المفكّر الباكستاني أبي الأعلى المودودي(34)، وبنى عليه مفهومه الخاص حول التميّز عن المجتمع الجاهلي كما أسماه، والمفاصلة معه عبر الانقطاع شعورياً عن القِيَم السائدة في ذاك المجتمع. وفي الأثناء، تتمثّل الطليعة المختارة معاني التوحيد خلال عزلتها الشعورية، قبل العودة لإزالة المجتمع الجاهلي في مرحلة تالية. وسيّد قطب كما سواه من منظّري الحركة الإسلامية يستقي الدروس من التجربة النبوية في مكة والمدينة، ليقرّر قواعد إعادة بناء المجتمع الإسلامي في أيّ عصر، وتتلخّص بالقاعدة النظرية حيث يتمّ بناء عقيدة التوحيد، والقاعدة العملية حيث يقام التجمع العضوي الحَرَكي

(33) القاعدة اللوائح الداخلية، مركز مكافحة الإرهاب، رقم الوثيقة: AFGP-2002-600048-ORIG.

(34) أبو الأعلى المودودي (1903–1979م) مفكّر وكاتب، طبع بتأثيراته المشهد الإسلامي في شبه القارة الهندية وفي العالم الإسلامي عامة، وكانت لكتاباته تردّدات كثيرة في أدبيات الحركة الإسلامية في كل مكان. أسّس الجماعة الإسلامية في الهند عام 1941. ولدى قيام دولة دولة باكستان عام 1947 انتقل هو وأتباعه إلى لاهور. حُكم عليه بالإعدام في باكستان عام 1953 بسبب كتابه ضد القاديانية، ثم نال العفو عام 1955. من كتبه الكثيرة: الجهاد في الإسلام، ونحن والحضارة الغربية، ونظرية الإسلامية السياسية، والمصطلحات الأربعة في القرآن، وموجز في تاريخ تجديد الدين وإحيائه، وتفهيم القرآن.

الذي يحمل العقيدة ويعيشها فعلاً. وعليه، "لا بدّ أن يقوم أولاً المجتمع المسلم الذي يقرّ عقيدة أن لا إله إلا الله، وأنّ الحاكمية ليست إلا لله، ويرفض أن يقرّ بحاكمية لأحد من دون الله، ويرفض شرعية أيّ وضع لا يقوم على هذه القاعدة. وحين يقوم هذا المجتمع فعلاً تكون له حياة واقعية تحتاج إلى تنظيم وإلى تشريع. فإذا دخل في هذا الدين بمفهومه هذا الأصيل عصبةٌ من الناس، فهذه العصبة هي التي يُطلَق عليها اسم المجتمع المسلم، الذي يصلح لمزاولة النظام الإسلامي في حياته الاجتماعية[35].

لكن مرحلة بناء العقيدة ليست منعزلة عن مرحلة التكوين العملي للحركة الإسلامية بحسب قطب، وهي كانت في العهد المكي مرحلة البناء القاعدي للعقيدة وللجماعة وللحركة وللوجود الفعلي معاً، "وهكذا ينبغي أن تكون كلما أريد إعادة هذا البناء مرة أخرى". وعلى هذا، "لا تكون هذه المرحلة من أجل دراسة نظرية للعقيدة، ولكنها مرحلة ترجمة لهذه العقيدة، أولاً بأول، في صورة حية متمثّلة في ضمائر متكيّفة بهذه العقيدة ومتمثّلة في بناء جماعي وتجمّع حركي يعبّر نموه من داخله ومن خارجه عن نمو العقيدة ذاتها، ومتمثّلة في حركة واقعية تواجه الجاهلية، وتخوض معها المعركة في الضمير وفي الواقع كذلك"[36].

ففي البدء، يجب تقرير العقيدة أولاً، فلا تمتلئ القلوب بالطمع ولا بالحقد، ولا تسير الأمور كلها بالسيف والعصا ولا بالتخويف والإرهاب. وينبغي أن تطول مرحلة بناء العقيدة، وأن تتمّ خطوات البناء على مهل، وفي عمق وتثبّت[37]. ومن مستلزمات هذه المرحلة أيضاً عدم الرهان على حشد القاعدة العريضة من أجل إحداث التغيير، في انتقاد واضح لطريقة عمل جماعة الإخوان المسلمين في زمن مؤسّسها حسن البنّا. فقد كان بمستطاع الرسول ﷺ حشد قاعدة عريضة على أسس قومية أو اجتماعية أو إصلاحية حتى يولّيه الناس القيادة والسيادة، فيقوم بعد استجماع السلطان في يديه،

(35) سيد قطب، معالم في الطريق، دار الشروق، ط6، 1979، ص33،36.
(36) المصدر نفسه، ص39.
(37) المصدر نفسه، ص26،39.

وبعد أن يستجيب له الكثرة فيغلب بها القلة، بإقرار عقيدة التوحيد التي بُعث بها في تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد أن عبّدهم لسلطانه البشري، بدلاً من أن تثير دعوة لا إله إلا الله المعارضة القوية منذ أول الطريق[38]. لكنّ الله سبحانه وتعالى كان يريد منهجاً معيّناً متفرّداً كما يقول قطب، من خلال بناء جماعة وحركة وعقيدة في وقت واحد، أي أن يبني الحركة والجماعة بالعقيدة، وأن يبني العقيدة بالحركة والجماعة، وأن تكون العقيدة هي واقع الجماعة الحركي الفعلي، وأن يكون واقع الجماعة الحركي الفعلي هو الصورة المجسّمة للعقيدة، لذلك فإن بناء النفوس والجماعات لا يتمّ بين يوم وليلة، حتى إذا نضج التكوين العَقَدي كانت الجماعة هي المظهر الواقعي لهذا النضوج[39].

ويصل قطب إلى صلب نظرية المفاصلة مع الجاهلية، إذ ما دام بناء المجتمع المسلم لا يلحظ فارقاً زمنياً بين النظري والعملي، فلا يمكن للمسلمين أن يكونوا أفراداً ضمن الكيان العضوي للتجمّع الحركي الجاهلي القائم فعلاً. فإن وجودهم على هذا النحو مهما كَثُر عددهم لا يمكن أن يؤدي إلى "وجود فعلي" للإسلام، لأن الأفراد "المسلمين نظرياً" الداخلين في التركيب العضوي للمجتمع الجاهلي سيظلّون مضطرين حتماً للاستجابة لمطالب هذا المجتمع العضوية. وسيتحرّكون طوعاً أو كرهاً، بوعي أو بغير وعي لقضاء الحاجات الأساسية لحياة هذا المجتمع الضرورية لوجوده، وسيدافعون عن كيانه، وسيدفعون العوامل التي تهدّد وجوده وكيانه، لأن الكائن العضوي يقوم بهذه الوظائف بكلّ أعضائه سواء أرادوا أم لم يريدوا، أي أنّهم سيظلّون يقومون "فعلاً" بتقوية المجتمع الجاهلي الذي يعملون "نظرياً" لإزالته، وسيظلّون خلايا حية في كيانه تمدّه بعناصر البقاء والامتداد، وسيعطونه كفاياتهم وخبراتهم ونشاطهم ليحيا بها ويقوى، وذلك بدلاً من أن تكون حركتهم في اتجاه تقويض هذا المجتمع الجاهلي لإقامة المجتمع الإسلامي[40].

---

(38) المصدر نفسه، ص25–26،28.

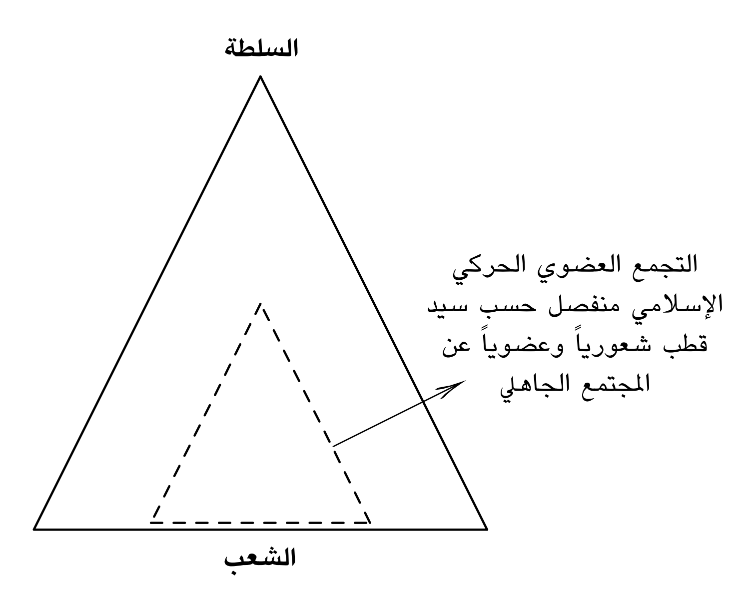
(39) المصدرنفسه، ص39–40.

(40) المصدر نفسه، ص49.

ولعلّ هذه الفكرة هي من أخطر ما توصّل إليه سيّد قطب، فالانفصال شعورياً وعضوياً عن المجتمع الجاهلي القائم، يؤدي مع التمايز من خلال الحاكمية الإلهية، إلى حافة تكفير المجتمعات المسلمة الراهنة والتي لا تتحاكم إلى شريعة الله، رغم أنه لا يصرّح بهذا الأمر على سبيل التعيين، لكن عبد الله عزّام داعية الجهاد المعاصر، سيستفيد من هذه الأفكار في واقع آخر وزمن مختلف، لينشر مفهوم "القاعدة الصلبة" ذات المعنى الطليعي من جهة والجغرافي من جهة أخرى، حين وفّرت ظروف الجهاد في أفغانستان، فرصة نادرة لإنشاء هذه القاعدة المسلمة في بيئة حاضنة، كما سنرى في سياق المطلب الرابع من هذا البحث. ذلك أنّ دعوة قطب لأن يكون التجمع العضوي الحركي المسلم منفصلاً ومستقلاً عن التجمع العضوي الحركي الجاهلي الذي يهدف الإسلام لإلغاءه، لا تجد مصاديقها العملية إلا في بقعة جغرافية خارجة عن سيطرة أيّ نظام جاهلي، بل هي نوع من الرؤى المثالية غير الواقعية، فلن ينجح مجتمع مسلم وليد أن ينفصل إرادياً عن المجتمع الجاهلي دون الاصطدام العنيف معه، لا سيما وأنّ المطلوب منه أن يخلع ولاءه من التجمع الحركي الجاهلي –أي التجمع الذي جاء منه– ومن قيادة ذلك التجمع في أية صورة كانت، سواء كانت في صورة قيادة دينية من الكَهَنة والسَّدَنة والسحرة والعرّافين ومن إليهم، أو في صورة قيادة سياسية واجتماعية واقتصادية كالتي كانت لقريش، وأن يحصر ولاءه في التجمع العضوي الحركي الإسلامي الجديد، وفي قيادته المسلمة، وأن يعمل أعضاؤه عملاً عضوياً كأعضاء الكائن الحي على تأصيل وجوده وتعميقه وتوسيعه، وفي الدفاع عن كيانه ضد العوامل التي تهاجم وجوده وكيانه، حيث إنهم يعملون هذا تحت قيادة مستقلة عن قيادة المجتمع الجاهلي، تنظّم حركتهم وتنسّقها، وتوجّههم لتأصيل وتعميق وتوسيع وجودهم الاسلامي، ولمكافحة ومقاومة وإزالة الوجود الآخر الجاهلي[41] فقطب يرى أنّ المجتمع الإسلامي لا يقوم حتى تنشأ جماعة من الناس تقرّر أنّ عبوديتها الكاملة لله وحده، وأنها لا تدين بالعبودية لغير الله، في الاعتقاد والتصوّر، وفي العبادات

(41) المصدر نفسه، ص50.

والشعائر، وفي النظام والشرائع، ثم تأخذ بالفعل في تنظيم حياتها كلها على أساس هذه العبودية الخالصة، "عندئذ فقط تكون هذه الجماعة مسلمة، ويكون هذا المجتمع الذي أقامته مسلماً كذلك. فأما قبل أن يقرّر ناس من الناس إخلاص عبوديتهم لله فإنهم لا يكونون مسلمين. وأما قبل أن ينظّموا حياتهم على هذا الأساس فلا يكون مجتمعهم مسلماً. هكذا كانت نشأة الجماعة المسلمة الأولى التي أقامت المجتمع المسلم الأول، وهكذا تكون نشأة كل جماعة مسلمة، وهكذا يقوم كل مجتمع مسلم"[42].



الشكل رقم (2)

أما المجتمع الجاهلي القديم بكامله فقد ينضمّ إلى المجتمع الإسلامي الجديد وقد لا ينضمّ، كما أنه قد يهادن المجتمع المسلم الجديد أو يحاربه، وإن كانت السُّنة قد جرت بأن يشنّ المجتمع الجاهلي حرباً لا هوادة فيها، سواء على طلائع هذا المجتمع في مرحلة نشوئه –وهو أفراد أو مجموعات– أو على هذا المجتمع نفسه بعد قيامه فعلاً[43]. وعلى هذا، فإن العلاقة بين

(42) المصدر نفسه، ص86–87.

(43) المصدر نفسه، ص88.

المجتمعين هي علاقة نفي متبادل، وإنّ محاولة إلغاء وجود قائم بالفعل (المجتمع الجاهلي) لإقامة وجود آخر (المجتمع المسلم) يخالفه مخالفة أساسية في طبيعته وفي منهجه، وفي كلياته وجزئياته، لا بدّ أن تتمثّل في تجمع عضوي حركي أقوى في قواعده النظرية والتنظيمية، وفي روابطه وعلاقاته ووشائجه، من ذاك المجتمع الجاهلي القائم فعلاً[44].

أما كيف يتمّ الانتقال الحرج من وضع إلى آخر، فهذا ما لم يكن ممكناً لقطب وضع خطوطه التفصيلية، مع إقراره أنّ الحركة الإسلامية التي حاول تأسيسها كامتداد لجماعة الإخوان المحظورة، عقب الانتفاع بالتجربة الإخوانية وبالتجارب التي سبقتها، هي القاعدة لإقامة النظام الإسلامي، أياً كانت الوسائل التي ستستخدمها لذلك[45]. ولا بدّ إذن حسب قطب أن تبدأ الحركات الإسلامية من القاعدة: وهي إحياء مدلول العقيدة الإسلامية في القلوب والعقول، وتربية من يقبل هذه الدعوة وهذه المفهومات الصحيحة، تربية إسلامية صحيحة، وعدم إضاعة الوقت في الأحداث السياسية الجارية، وعدم محاولة فرض النظام الإسلامي عن طريق الاستيلاء على الحكم قبل أن تكون القاعدة المسلمة في المجتمعات هي التي تطلب النظام الإسلامي لأنها عرفته على حقيقته وتريد أن تحكم به[46].

وفي الوقت نفسه، ومع المضيّ في برنامج تربوي كهذا، لا بدّ من حماية الحركة من الاعتداء عليها من الخارج، تدميرها ووقف نشاطها وتعذيب أفرادها، وتشريد بيوتهم وأطفالهم تحت تأثير مخطّطات ودسائس معادية، كالذي حدث للإخوان سنة 1948، ثم سنة 1954 وسنة 1957. وهذه الحماية تتمّ عن طريق وجود مجموعات مدرّبة تدريباً فدائياً بعد تمام تربيتها الإسلامية من قاعدة العقيدة ثم الخُلُق. ولا تبدأ هذه المجموعات الاعتداء، ولا محاولة قلب نظام الحكم، ولا تشارك في الأحداث السياسية المحلية. وطالما الحركة آمنة ومستقرة في طريق التعليم والتفهيم والتربية والتقويم، وطالما

---

(44) المصدر نفسه، ص48.
(45) سيد قطب، لماذا أعدموني؟، منبر التوحيد والجهاد.
(46) المصدر نفسه.

الدعوة ممكنة بغير مصادرة لها بالقوة، وبغير تدمير لها بالقوة، وبغير تعذيب وتشريد وتذبيح وتقتيل، فإن هذه المجموعات لا تتدخل في الأحداث الجارية، ولكنها تتدخل عند الاعتداء على الحركة والدعوة والجماعة لردّ الاعتداء وضرب القوة المتعدّية بالقدر الذي يسمح للحركة أن تستمر في طريقها، إذ إنّ الوصول إلى تطبيق النظام الإسلامي والحكم بشريعة الله ليس هدفاً عاجلاً لأنه لا يمكن تحقيقه إلا بعد نقل المجتمعات ذاتها، أو جملة صالحة منها ذات وزن وثقل في مجرى الحياة العامة، إلى فهم صحيح للعقيدة الإسلامية ثم للنظام الإسلامي، وإلى تربية إسلامية صحيحة على الخلق الإسلامي، مهما اقتضى ذلك من الزمن الطويل والمراحل البطيئة[47].

المطلب الثالث: محمد قطب و "القاعدة المسلمة"

يحتلّ محمد قطب الأخ الأصغر لسيّد قطب، موقعاً رفيعاً في الفكر الإسلامي الحَرَكي، فهو كأخيه قام بمراجعة نقدية لتجربة حسن البنّا، لكن بالمقارنة معه يبدو وكأنه يتراجع خطوة واحدة إلى الوراء من خلال تأكيده على ضرورة بناء "القاعدة المسلمة" في المجتمع وتوسيعها، دون الانفصال العضوي التام عن المجتمع الجاهلي، ولا الصدام معه حتى دفاعاً عن هذه "القاعدة"، وبانتظار أن يصبح حجمها متناسباً مع أعباء المواجهة.

ويقول محمد قطب إنّ البنّا الذي بدأ حياته صوفياً أدرك أنّ الإسلام أعظم بكثير مما تتمثّله الصوفية وتمارسه، وأنما هو عبادة فردية وجماعية معاً، تتمثّل في إقامة المجتمع المسلم الذي يتحاكم إلى شريعة الله، والدولة المسلمة التي تحكم بشريعة الله. وإذا كان هذا الحكم غير قائم فينبغي العمل على إقامته في ترتيب متدرّج متسلسل: بناء الفرد المسلم، فالأمة المسلمة، فالمجتمع المسلم، فالدولة المسلمة[48]. لكن البنّا اعتمد على حشد قاعدة عريضة حوله دون مفاصلة ولا تمييز، فانضم إلى الجماعة مئات الآلاف من الناس وكانوا نماذج شتى واتجاهات شتى، فكان منهم فريق من الصوفيين

---

(47) المصدر نفسه.

(48) محمد قطب، واقعنا المعاصر، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1997، ص381-382.

الذين ظنّوا أنّ الإخوان المسلمين جماعة صوفية جديدة متنوّرة خالية من البِدَع، وكان فيهم كثير من الشباب النظيف المتطهّر الذي لم تلوّثه موجة الفساد الكاسحة التي تُفسد المجتمع، وكان هناك جماهير جاءت لتُشبع وجدانها الديني وهي لا تعرف من الإسلام إلا ذلك الوجدان، وكان فيهم كذلك مستنفعون من رجال الأحزاب السياسية القائمة يومئذ، ظنّوا أنّ هذا حزب سياسي جديد ينمو بسرعة متزايدة فأرادوا أن لا تفوتهم الفرصة ويفوتهم القطار[49]. ولهذا، حين جاءت الضربة عام 1948–1949 فرّ كثير من هذه تلك الجموع وبقي فقط الشباب النظيف المتطهّر، ومع ذلك لم يبقَ كله، فما كان كله يعرف عقابيل الطريق، والذين بقوا داخل الجماعة بعد الضربة القاصمة كانوا هم الذين تربّوا بالفعل على يد البنّا، والذين كانوا في تقسيمه يسمّيهم الإخوان العاملين، وإن كان كثير من هؤلاء قد ظهرت عليهم فيما بعد آثار التعجّل في التكوين والحركة[50].

وهذا البناء الضخم الذي أقامه البنّا كان يشتمل على ثغرات ظلّت تعطي تأثيراتها بصور شتى في خط السير، والثغرة الأولى هي الاستعجال في التجميع الجماهيري قبل موعده الذي ينبغي أن يجيء فيه، في حين أنّ التربية هي عملية شاقة بطيئة تحتاج إلى كثير من الجهد، ورسول الله ﷺ هو أعظم مربٍّ في التاريخ، ولكنه لو واجه الألوف من أول لحظة فما كان من المستطاع أن يعطيهم كل رعايته كما أعطاها لتلك الحفنة القليلة المحدودة العدد[51].

وكما حدث التعجّل في دعوة الجماهير للتجمّع لدى تأسيس جماعة الإخوان المسلمين، وفي التحرّك بهذه الجماهير قبل الأوان المناسب، حدث كذلك في عملية البناء ذاتها فلم تبدأ من نقطة البدء اللازمة، بل تجاوزتها إلى ما يجيء بعدها في الترتيب. وإنّ نقطة البدء بحسب محمد قطب كان ينبغي أن تكون هي تصحيح العقيدة ذاتها وجلاء مفهومها الحقيقي الذي غاب عن

(49) المصدر نفسه، ص381–382، 385، 386.
(50) المصدر نفسه، ص388.
(51) المصدر نفسه، ص390، 391، 393.

الجماهير. ويعود سببا العجلة فيما يلي:

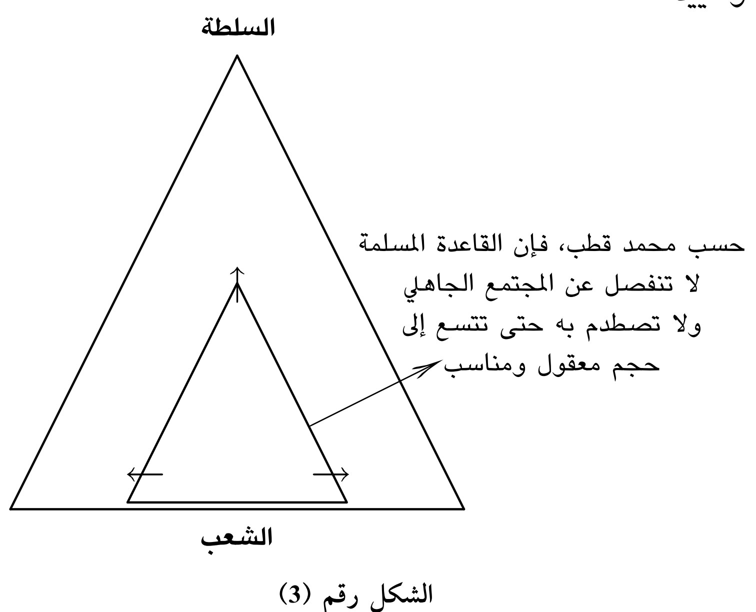
– افتراض (البنّا) أنّ "القاعدة الإسلامية" موجودة بالفعل، وأنّ المطلوب ليس إنشاءها من جديد، وإنما هو تجميعها وبثّ الحركة فيها وتنظيمها وقيادتها وتوجيهها إلى العمل المطلوب.

– عدم التقدير الكافي للقوة المطلوبة لمواجهة الصليبية العالمية والصهيونية العالمية من جهة والأحوال الداخلية من جهة أخرى، سواء من حيث نوعية هذه القوة أو من حيث حجمها المناسب(52).

فالعواطف الدينية لم تعد ذات دلالة حقيقية تُبنى عليها حركة واعية تواجه الجاهلية المعاصرة، ولم يكن إيقاظ الوجدان الديني من غفوته وتحويله إلى حركة واقعة إلا تصحيحاً لجانب واحد من الجوانب التي أصابت العقيدة خلال القرون وفي القرن الأخير خاصة، وهذا الخلل الآخر هو إفراغ لا إله إلا الله من حقيقتها في قضية الحاكمية المتصلة بتحكيم شريعة الله(53). ويستدلّ قطب على وجود هذا الخلل في فهم معنى التوحيد، أنه من غير الممكن أن يمرّ قتل الداعية (البنّا) الذي يدعو إلى تحكيم شريعة الله بهذه البساطة التي مرّ بها، ولا كذلك أن تمرّ المذبحة البشعة التي أقامها السفاح للدعاة الذين يدعون لتحكيم شريعة الله بهذه البساطة التي مرّ بها، فضلاً عن أن يكون هناك من يصفّق للسفاح إلا أن تكون هناك جهالة مطبقة لحقيقة لا إله إلا الله. ولا يمكن أن توجد القاعدة الإسلامية وهذه الجهالة قائمة، وإنّ أولى الخطوات لإقامة القاعدة الإسلامية هي إزالة هذه الجهالة من حياة الناس، فالحكم الإسلامي لن يقوم بمجرّد وجود جماعة مؤمنة مجاهدة تنادي بتحكيم شريعة الله، فأياً كانت الوسيلة المتخيّلة لوصول هذه الجماعة إلى الحكم، فإنه لا بدّ لكل حكم من سند يسنده ويدافع عنه مما يتعرّض له من كيد الأعداء(54).

(52) المصدر نفسه، ص399.
(53) المصدر نفسه، ص400.
(54) المصدر نفسه، ص403.

وعلى هذا، لا بدّ حسب محمد قطب أن تكون الانطلاقة بعدد محدود يتلقى التربية العَقَدية الوافية قبل أن ينتصب البناء الإجمالي للمجتمع المسلم، حيث تُستكمل في فترة الابتلاء والتمحيص جوانب كثيرة من التربية المطلوبة لحَمَلَة الأمانة الذين يواجهون الجاهلية في أول جولة، والذين تلزمهم صفات وأحوال غير التي تلزم للأفواج الداخلة فيما بعد، كما يحتاجون إلى عناية خاصة بمقدار ما تختلف إقامة الأعمدة الراسية في الأرض التي تحمل البناء كله عن إقامة الأحجار في أماكنها بين تلك الأعمدة التي تحتاج إلى صناعة خاصة ومكوّنات خاصة ومقوّمات خاصة وزمن معيّن لاستكمال تلك المقوّمات، فإن لم تستوفِ كل مقوّمات صناعتها فإنها تعرّض البناء كله فيما بعد للتشقّق أو الانهيار. وإن كان لا بدّ من الأحجار الكثيرة التي تشكّل الجدران وتعطي البناء شكله النهائي، لكنك لو بدأتَ برصّ الأحجار قبل دكّ الأساس، وقبل إقامة الأعمدة الرأسية أو قبل إتمام ذلك على المستوى المطلوب فإن البناء كلما علا ينهار، وتكون الأحجار حملاً ثقيلاً أكثر مما هي عون وتأييد[55].



الشكل رقم (3)

(55) المصدر نفسه، 394–395.

وإنّ الصفوة بحكم متانة تأسيسها -كما يقول محمد قطب- هي التي تستطيع الصمود لكيد الجاهلية التي تحاول بكل جهدها أن تقضي على الدعوة الجديدة قبل أن تمدّ لها جذوراً في التربة، لذلك يكون البطش في أقصى عنفوانه في جولته الأولى ولا يصمد له إلا تلك الصفوة المختارة من المؤمنين الذين يتلقّفون الشحنة الكاملة من قائدهم الذي يتعهّدهم بتربيته ورعايته، وإنّ نجاحهم في الصمود هو الذي سيشكّل نقطة التحوّل في خط سير الدعوة لأنه يعطف القلوب نحو أولئك المؤمنين الذين يتلقَّوْن هذا القَدْر الهائل من البطش والتعذيب دون أن يتحوّلوا عن الحق، فيكون صمودهم شهادة لهذا الحق تجتذب نفوساً جديدة، تؤمن به وتجاهد في سبيله، فتتسع القاعدة وهي على ذات القدر من المتانة وقوة التأسيس(56). وهنا يبدو أنّ تربية القاعدة المسلمة التي يدعو إليها قطب تجري وفق النموذج المكي الأول، والصمود الصلب لهذه القاعدة أمام شراسة الهجمة الجاهلية، هو الأداة الرئيسية للتوسّع واجتذاب الجمهور تدريجياً.

أما ما هو مطلوب لكي يقوم الحكم الإسلامي فهو أن تصبح القاعدة المسلمة بالحجم المعقول الذي يقود خطى الأمة كلها في سبيل تحقيق ذلك الهدف الضخم، والذي لا يعوقه وجود المنافقين وضِعاف الإيمان والمُبطئين والمتثاقلين. والعقبة الأولى في سبيل بناء هذه القاعدة بالحجم المطلوب هي تلك الجهالة المُطبقة لحقيقة لا إلا إلا الله، ذلك أنّ المسلمين لا يتحرّكون في فراغ، إنما يتحرّكون في وسط عداوات عالمية ومحلية قد تكون في حجمها أضخم عداوة في التاريخ، وأعداء الإسلام يستغلّون هذه الجهالة على أوسع نطاق في محاربة الحركات الإسلامية(57).

ويسأل قطب كيف يكون الحال لو أنّ الجماهير أدركت أنّ المسلم لا يكون مسلماً إلا إذا حكم بما أنزل الله وتحاكم إلى شريعة الله؟ ويجيب: على أقل تقدير سيجعل تكوين القاعدة المسلمة أيسر بكثير وأقرب بكثير من خطها الحالي الذي يواجه فيه وحشية الطغاة بغير سَنَد من الجماهير، بينما

(56) المصدر نفسه، ص395.
(57) المصدر نفسه، ص404.

الطغاة في إجرامهم الوحشي يتدرّعون بجهالة الجماهير[58]، أي إنّ الوعي بحقيقة الإسلام ووجوب التحاكم إلى الشريعة هو ما يسهّل تكوين القاعدة المسلمة وتوسيعها مما لو بقيت الجهالة مطبقة على الجماهير، ولهذا كانت محنة الإخوان في مصر وسواها، لافتقار الحركة الإسلامية إلى السَّنَد الشعبي الحقيقي.

وتتكوّن القاعدة التي هي الأساس في الصحوة الإسلامية -كما يقول محمد قطب- من نوعية فريدة لتواجه ذلك العداء كله وتصبر عليه، وهي ذات وعي سياسي فائق، ووعي فكري متعمّق، يحيط بما حول المسلمين من عداوات، وبطبيعة المعركة، ووسائل الحرب المتَّبعة فيها، والأدوات اللازمة لمواجهتها، وتدرك فوق ذلك أنّ المعركة ليست ذات طبيعة محلية محدودة، وليست معركة جيل واحد، بل معركة أجيال متعاقبة، سواء بسبب العداوات المرصودة من الخارج أو بسبب الجهل العميق بحقيقة الإسلام الذي يعوق نشأة القاعدة المسلمة[59].

أما من أسباب تمزّق العمل الإسلامي وتفرّقه فعدم وجود قيادة كبيرة ترتاح النفوس إليها، وتتبعها طائعة بدافع الإعجاب والحب والتقدير والتوقير. وفي غياب القيادة الكبيرة تقوم قيادات صغيرة متنابذة متنافرة، يعتزّ كلٌّ منها برأيه وموقفه، فلا يحدث الوفاق ولا اللقاء[60]. ودور القائد مركزي بنظر قطب، فوجوده ضروري لبناء القاعدة دون تعجّل ولا تهوّر، وعليه تقوم المعادلة الصعبة، فحين يأخذ الشباب شحنة الإسلام الحقيقية ويرى بُعد الواقع عن هذه الحقائق، تملؤه الحماسة فيرغب في إزالة الواقع بالقوة، وهنا يقع المحظور أي إتاحة الفرصة لأعداء الإسلام لتصفية الحركات الإسلامية بتهمة أنها إرهابية، وحين يقال للشباب كفّوا أيديكم ولا تصطدموا بالسلطة خمدت حماستهم وضاعوا. لكن القيادة المطلوبة للعمل الإسلامي في ظروفه الدقيقة الراهنة هي القيادة التي تستطيع إعطاء الشحنة التربوية كاملة، وفي

(58) المصدر نفسه، ص406-407.
(59) المصدر نفسه، ص412.
(60) المصدر نفسه، ص478.

الوقت ذاته تقول للناس كفّوا أيديكم فيطيعون دون أن تخمد حماستهم ودون أن يأكلهم اليأس[61].

ويوضح محمد قطب مسألة دقيقة وهي أنّ وصف هذه المجتمعات بالجاهلية لأنها لا تَحكُم بشرع الله ولا تُحكَم به، لا علاقة له البتة بعقائد أهل هذه المجتمعات، فقد يكونون مسلمين وقد يكونون كفاراً وقد يكونون خليطاً من المسلمين والكفار. وتظلّ صفة المجتمع تابعة لنوع الحكم الذي يُحكم به ذلك المجتمع بصرف النظر عن عقائد من فيه، وذلك كوصف الدار بأنها دار حرب أو دار إسلام بالنظر إلى غَلَبة الأحكام فيها بغضّ النظر عن عقائد أهلها[62].

أما حكم تقلّد الوظائف في المجتمع الجاهلي، فالأصل في المسلمين أي الذين ينكرون الحكم بغير ما أنزل الله أن يكونوا بقدر الإمكان في مواقع بعيدة عن ضغط الحكم الجاهلي عليهم، لكن هذا لا يتوافر في جميع الأحوال، فكثير من الناس تضطّرهم ظروف المعيشة أن يدخلوا تحت هذا الضغط من أجل إعالة أنفسهم وذويهم. لا تحديد دقيقاً لمدى مشروعية الانخراط في المجتمع الجاهلي، كما يرى قطب، لكن بصفة عامة كلما قَرُبت الوظيفة من السلطان فقد بَعُد موقع المسلم منها بالضرورة[63]، وهذا يعني أنّ محمد قطب يختلف عن أخيه سيّد في مسألة الانفصال العضوي عن المجتمع الجاهلي.

المطلب الرابع: عبد الله عزّام و"القاعدة الصلبة"

تحوّل الشيخ عبد الله عزّام إلى رمز عالمي للجهاد مطلع ثمانينات القرن العشرين، إثر تولّيه قيادة الجناح العربي في مقاتلة القوات السوفياتية في أفغانستان (1979–1989)، وذلك بعدما أقنعه صهر سيّد قطب، كمال السنانيري[64] بالتوجه إلى هذه الجبهة بدلاً من الذهاب إلى شمالي اليمن

(61) المصدر نفسه، ص479.
(62) المصدر نفسه، ص484.
(63) المصدر نفسه، ص485.
(64) كمال السنانيري (1918–1981م) هو أحد كبار جماعة الإخوان المسلمين وصهر سيّد قطب حيث خطب أخته أمينة رغم مكوثه في السجن سنيناً طويلة. =

لقتال الشيوعيين في الجنوب. وباعتبار ما لسيّد قطب من تأثير كبير على عزّام فقد وجد في أفغانستان الأرض المناسبة لتطبيق آراء قطب بخصوص العصبة المؤمنة أو القاعدة المسلمة الضرورية لإقامة المجتمع المسلم[65]، حيث يتزاوج هناك الانفصال الشعوري عن المجتمع الجاهلي السائد في بلدان المنشأ، والذي تحدّث عنه قطب في كتابه (معالم في الطريق) مع تطبيق الانفصال الجغرافي غير الممكن تحقيقه في مصر ولا في سواها، واكتفى قطب آنذاك بالدعوة إلى الانفصال العضوي، بأن لا يكون المسلمون جزءاً من الجاهلية القائمة. فبرأي عزّام، إنّ إقامة المجتمع المسلم فوق بقعة أرض هي أمر ضروري للمسلمين، ضرورة الماء والهواء، "وهذه الدار لن تكون إلا بحركة إسلامية منظّمة تلتزم الجهاد واقعاً وشعاراً وتتخذ القتال لحمة ودثاراً"، حيث إنّ هذه الحركة لن تستطيع إقامة المجتمع المسلم إلا من خلال جهاد شعبي عام، تكون هي قلبه النابض وعقله المفكّر، وتكون بمثابة الصاعق الصغير الذي يفجّر العبوة الناسفة الكبيرة، أي لمّا تفجّر الحركة الإسلامية طاقات الأمة الكامنة وينابيع الخير المخزونة في أعماقها، كما كان دور الصحابة في زمن الإسلام الأوّل رغم أنّ عددهم قليل جداً بالنسبة لمجموع عامة المسلمين الذين قوّضوا عرش كسرى وثلّوا مجد قيصر[66].

= تعرّض للاعتقال بعد حادث المنشية (محاولة اغتيال عبد الناصر) سنة 1954م وبقي في السجن عشرين عاماً. استأنف نشاطه الدعوي بعد خروجه من المعتقل، وكان له دور بارز في ميدان الجهاد بأفغانستان، اعتقل مرة أخرى عقب قرارات أيلول (سبتمبر) الشهيرة التي أصدرها الرئيس أنور السادات سنة 1981م، وفي السجن عُذِّب تعذيباً شديداً، حتى تُوفي في حين ادّعت الصحف في اليوم التالي أنه انتحر في زنزانته. انظر موسوعة الإخوان على الشبكة: www.ikhwanwiki.com

(65) قرّر عزّام الالتحاق بالجهاد في أفغانستان بعد زيارة استطلاعية إلى باكستان حيث التقى قادة الأفغان هناك، وارتأى أن أفغانستان تمثّل فرصة ذهبية، وأن فتح باب الجهاد فيها بداية للنهضة، وتعبيد الطريق نحو فلسطين، وخط التحول التاريخي في العالم كله. انظر: محمود عزّام، الدكتور الشهيد عبد الله يوسف عزّام، شيخي الذي عرفت، مرجع سابق، ص38.

(66) عبد الله عزّام، إلحق بالقافلة، ط1، 1978.

وانتقد عزّام فكرة اللجوء إلى حفنة من الضباط لإحداث التغيير، باعتباره ضرباً من الخيال أو وهماً يشبه المحال، ولا يعدو أن يكون تكراراً لمأساة عبد الناصر مع الإخوان المسلمين، في حين أنّ الحركة الشعبية الجهادية مع طول الطريق ومرارة المعاناة وضخامة التضحيات، تصفّي النفوس فتعلو على واقع الأرض الهابط، وترتفع الاهتمامات عن الخصومات الصغيرة والأغراض القريبة، فتسير القافلة صُعُداً. وخلال طريق الجهاد تُفرَز القيادات، وتظهر الكفاءات من خلال العطاء والتضحية. وطبيعة المجتمعات كالماء تماماً، ففي الماء الراكد تطفو على السطح الطحالب والأعفان، أما الماء المتحرّك فلا يحمل العَفَن فوقه، والقيادات في المجتمعات الراكدة لا يمكن أن تكون على قدر المسؤولية، لأنها لا تبرز من خلال الحركة والتضحية والبذل والعطاء. أما الأمة الجهادية التي يقودها أفذاذ برزوا في الميدان، فليس من السهل أن تفرّط بقيادتها أو تخطّط للإطاحة بها، وليس من اليسير على أعدائها أن يشكّكوا بمسيرة أبطالها، إضافة إلى أنّ الحركة الجهادية الطويلة تُشعر الأمة أنها جزء من الصراع وتضحياته، فيكون الجميع حُرّاساً أمناء لهذا المجتمع الوليد، الذي عانت الأمة جميعها من آلام مخاضه(67).

ولقد استطاع عزّام بقوة شخصيته وبساطة حُجّته أن ينفذ إلى قلوب الكثير من أتباع الجماعات الإسلامية المختلفة، وأن يزعزع المسلّمات التقليدية والحَرَكية على حدٍّ سواء، حتى إنه لم يوفّر الإخوان المسلمين من سهامه بسبب ركونهم إلى الوسائل السياسية في نضالهم نحو إقامة الشريعة وتأسيس الدولة وعدم اغتنامهم فرصة الجهاد في أفغانستان بالقدر الذي تمنّاه منهم، بل إنه يوجّه اللوم إلى البنّا نفسه، فيقول إنّ مرشد الجماعة "كان يدرك أنّ معركة فلسطين معركة أساسية، وأنّ مقاتلة اليهود في المنطقة يجب أن تُقدَّم على مواجهة أيّ حاكم ظالم، لأنه كان يعتبر أنّ هؤلاء الحكام زائلون، وإذا ثبّتت إسرائيل أقدامها فإنها تستطيع أن تحرّك المنطقة بأسرها. لكن الأعداء كانوا يفكّرون كما يفكّر البنا، ولذلك سبقوه. وقد أرسل البنّا مجموعة من الشباب إلى فلسطين لكن فاته أن يغتنم الفرصة بسرعة،

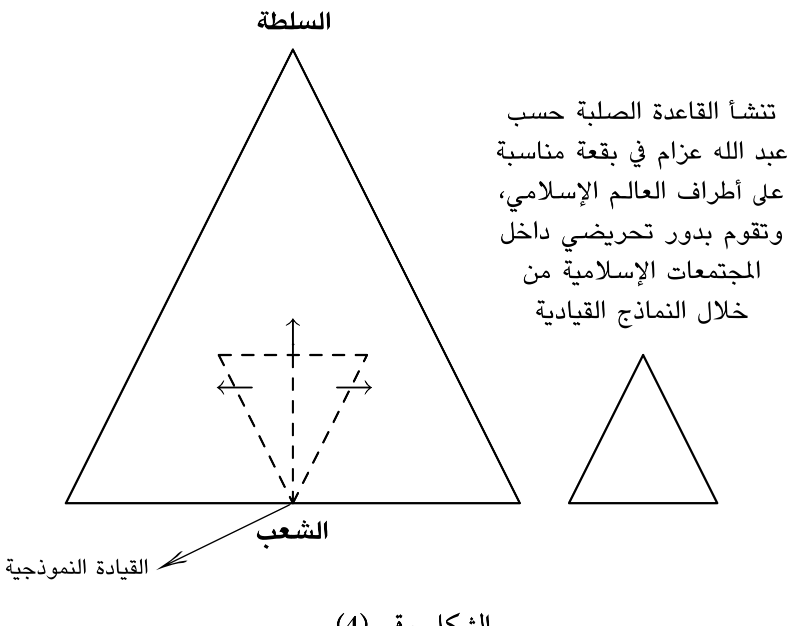
---

(67) المصدر نفسه.

وأن يدفع بأكبر عدد منهم. وبرأي عزّام، لو أرسل بعددٍ كافٍ لهزموا اليهود ولأقاموا الدولة الإسلامية في فلسطين، ولتساقطت الأنظمة طبيعياً بعد ذلك بانتصار هذه الحركة على أكبر عدو مشترك في المنطقة وهو اليهود، وقلوب الناس متوهّجة، ونفوسهم متحرّقة، وأعصابهم مشدودة لقضية فلسطين، وأيّ واحد يدخل فلسطين ينال ثقة الناس أجمعين، لكن المشكلة كما رآها عزّام أن "الأستاذ البنّا ما كان يظنّ أنّ الحكام بهذا السوء، وأنّهم كلهم سيتآمرون ضد المسلمين ويقفون مع اليهود"[68]. ويكشف رأي عزّام هذا، عن وجود فكرة محاربة العدو البعيد للتأثير سلباً على العدو القريب بحيث تُحسم المعركة معه بأقل الخسائر بعد تدمير معنوياته، ورفع معنويات القاعدة المسلمة والمجتمع الإسلامي ككل.

أما وقد ضاعت فرصة تحرير فلسطين في تلك الفترة المبكرة، فقد أراد عزّام "مجّسماً للإسلام فوق طاولة، فوق بقعة أرض، وهذا المجسّم دولة إسلامية تحكم بهذا الدين حتى يراها الناس"، وأين بقعة الأرض هذه؟ يقول عزّام: "عندما رأيت أفغانستان وقع في قلبي أنّ هذه الأرض هي التي نبحث عنها لإقامة دولة إسلامية". ولماذا أفغانستان؟ "لأن فيها الجبال، والحدود المفتوحة، ودولاً متعاونة مثل باكستان، وأناساً يمدّون إليك يد المساعدة، ثم هي بقعة واسعة، والشعب كله معك. والحركة الإسلامية فيها ما طال عليها الأمد، فما هي إلا خمس أو ست سنوات ودُهمت بالأحداث، ولا زالت طاقات الإسلاميين حية في نفوسهم، إذ لم يستغرقوا فترة طويلة في التربية لأن الأحداث دهمتهم، والشباب كلهم دون الثلاثين، والله ساق إليهم قيادة شابة حازمة حاسمة متحمّسة تتفجّر حيوية وتتدفّق طاقة. كما أنّ الشعب الأفغاني فريد في أصالته، وما تلطّخ بالحضارة الغربية، وفطرته سليمة"[69].

(68) عبد الله عزام، الهجرة والإعداد.
(69) المصدر نفسه.



الشكل رقم (4)

ويتوصّل عزّام من تجربته في أفغانستان إلى نظرية جديدة هي من إرهاصات فكرة "القاعدة" فيما بعد، بل قد تكشف سرّ التسمية نفسها، فبحسب عزّام لا بدّ من حركة إسلامية حتى تقوم الدولة الإسلامية على يدها، لكنها لا تستطيع أن تقيم دولة الإسلام وحدها، إذ لا بدّ من أن تعتني هذه الحركة بأبنائها، فتربّيهم تربية ربانية، وإذا أصبحوا ناضجين، لا بدّ أن يشرعوا السلاح وتبدأ المعركة المسلحة مع اختيار بقعة أرض مناسبة، وشعب مناسب إن أمكن. ويسرد المسار المفترض فيقول: نقوّي الحركة الإسلامية داخل هذا الشعب، ثم تُشعل الحركة الفتيل وتقود المسيرة. سيلتفّ حولها الشعب يوماً بعد يوم، إذ إنّ المجاهدين سيفجّرون عاطفة هذا الشعب وسيجتذبون انتباهه وسيُحرجون أعداءهم، لأنه لا يستطيع أحد أن يتكلم على الجهاد، والأولى بالحركة الإسلامية أن تختار عدواً مشتركاً يتفق الجميع على أنّ هذا عدو، مثل اليهود الذين هم عدو مشترك، والأولى بالحركة الإسلامية أن تبدأ بالقتال ضدهم. وإنّ روسيا عدو مشترك فلا يستطيع أحد أن يسمّي الذي يقاتل الروس خائناً، بل سينظر الوطني إليك من ناحية وطنية فيحترمك

ويُعجَب بشخصك، أولاً، ثم يعجب بمبدئك ثانياً، والمسلم كذلك سيقدّرك لأنك تبحث عن الموت وتدافع عن الشعب. ستطول المعركة، وكلما طالت استفادت الحركة الإسلامية. وكلما طالت المعركة دفعت بالنماذج إلى القمة، لأنه مع طول المدة سيضعف الذي ليس له صلة وثيقة بالله عزّ وجلّ. وبعد معركة طويلة مع أعداء الله عزّ وجلّ ستكون النتيجة واحداً من اثنين، إما أن ينتصر الكفار وإما أن ينتصر المسلمون. إن انتصر المسلمون قامت الدولة الإسلامية، وإن انتصر الكفار لم تخسر الدعوة الإسلامية. وهي لن تخسر لأنها كوّنت رصيداً ضخماً من الناس، أحبوها ثم حفظوا لها تراثاً مجيداً، وصفحات مشرقة تُسكت الذين يثرثرون أو الذين يَلْهون أو يعبثون بأصحاب المبادئ[70].

هذه الآلية المعقّدة التي توصّل إليها عبد الله عزّام، هي خلاصة التجارب والنكسات التي تعرّضت إليها الحركات الإسلامية في صراعها مع الأنظمة، وهي تنمّ أيضاً عن مدى تأثره بسيّد قطب، في مسألة بناء القاعدة المسلمة أو التجمع العضوي الحَرَكي، لكنه يتخذ من الجهاد الشعبي أداة لتكوين نماذج جاذبة، كي تتسع تلك القاعدة، كما أشار محمد قطب في كتابه (واقعنا المعاصر)، وهو ما يسميه عزّام ببناء القاعدة الصلبة. وعن هذه القاعدة يقول: "كل مبدأ من المبادئ لا بدّ له من طليعة تحمله، وتتحمّل وهي تشقّ طريقها إلى المجتمع تكاليف غالية وتضحيات باهظة. وما من عقيدة من العقائد أرضية كانت أو سماوية إلا واحتاجت إلى هذه الطليعة التي تبذل في سبيل نصرة عقيدتها كلّ ما تملك، وتتحمّل لأواء الطريق الصعب الطويل حتى تصل إلى اقرارها في واقع الحياة إذا كتب الله لها التمكين والظهور. وهذه الطليعة تمثّل القاعدة الصلبة للمجتمع المأمول[71].

أما الأساس الذي تنبني عليه القاعدة الصلبة فهو العقيدة، وبدون التربية العَقَدية الطويلة لا يمكن أن يقوم المجتمع الرباني، وإن قام فإنه

---

(70) المصدر نفسه، مع تصرف يسير.

(71) عبد الله عزّام، القاعدة الصلبة، مجلة الجهاد، العدد 41، شعبان 1408هـ، الموافق نيسان (أبريل) 1988م.

سيكون هيكلاً هشاً سرعان ما ينهار لهبّة ريح أو مرور عاصفة. وإن كان لا بدّ لأيّ عقيدة حتى لو كانت عقيدة إلهية أن تجد هذه الطليعة المضحّية التي تبذل كل ما تملك من أجل اظهار عقيدتها، فإنّ العقيدة نفسها ستولد ميتة وتوأد قبل أن ترى النور والحياة إن لم تعثر على تلك الطليعة[72]. ثم يشير عزّام إلى نقطة أساسية رغم تأكيده على مبدأ الجهاد، وهي أنّ "حمل السلاح قبل التربية الطويلة للعصبة المؤمنة يُعتبر أمراً خطيراً لأن حَمَلة السلاح سيتحوّلون إلى عصابات تهدّد أمن الناس وتقضّ عليهم مضاجعهم[73]، ذلك لأن عزّام يعوّل على التربية كأساس لبناء القاعدة الصلبة، والأولوية لديه لتربية النماذج لا إكثار الأعداد، لأن الناس إنما يتغيّرون بفعل النماذج والأفذاذ، والفئة الصابرة الصادقة وإن كانت قليلة فإنها تنتصر، وهذه القاعدة الصلبة هي التي أعادت الجزيرة العربية كلها أيام الردة إلى الإسلام. ويقول: "لا بدّ من تربية النماذج الصلبة التي تستعصي على الإغراء، ولا تقبل البيع والشراء من قبل الأعداء والأصدقاء. ولا بدّ من تربية الأفذاذ الذين لا يقبلون الذوبان في حوامض المجتمع الجاهلي، ولا يتميّعون في ظروفه المختلفة، وهي العناصر الصلبة التي تحمل المجتمع والدعوة فوق كاهلها". ويخلص عزّام إلى أنه "لا بدّ للوصول إلى المجتمع المسلم من طلائع تتحمّل تكاليف الطريق، وعلى هذه الطلائع أن تدرك أن الذين يتصدّرون لإنقاذ البشرية ليسوا أناساً عاديين، بل من النماذج التي تسترخص كل شيء في سبيل دعوتها وعقيدتها"[74]. وعلى هذا، فإن تلك الطليعة المجاهدة أو القاعدة الصلبة تمثّل رأس الهرم المقلوب في مسار إعادة إنتاج المجتمع المسلم ومن ثَمّ الدولة الموعودة، وسيسير بن لادن على هذا الطريق من بعد عزّام، مع تطوير الوسائل ورفع سقف المعركة عالياً.

(72) المصدر نفسه.

(73) المصدر نفسه.

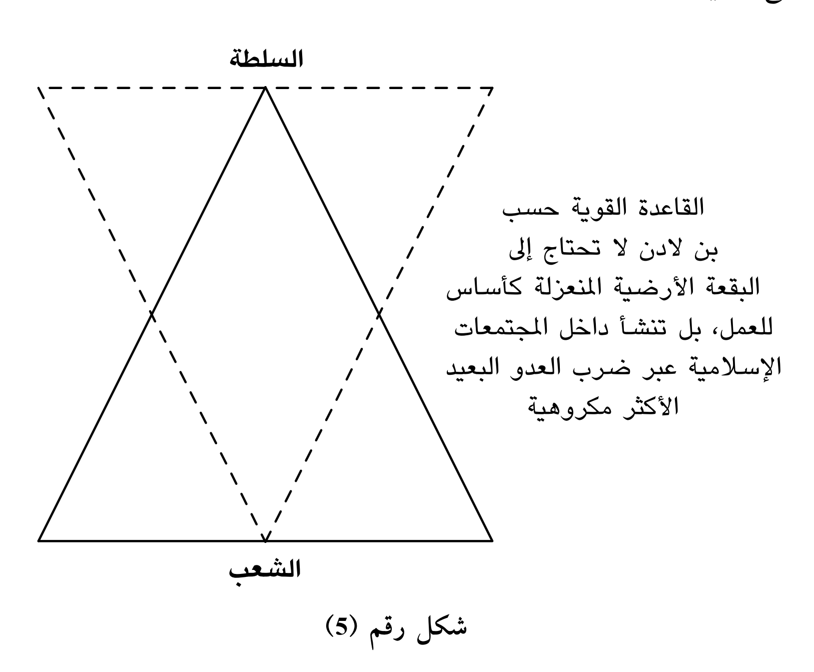
(74) عبد الله عزام، الإسلام ومستقبل البشرية، نشر وتوزيع مركز شهيد عزام الإعلامي، ط2، بيشاور–باكستان.

المطلب الخامس: أسامة بن لادن و"القاعدة القوية"

ذهب أسامة بن لادن بعيداً في استراتيجية الإرهاب أثناء حربه الخاصة على الولايات المتحدة التي هي في نظره "رأس الأفعى"، ويعود ذلك إلى مأزق الحركات الإسلامية -نظرياً وعملياً- مطلع التسعينات من القرن العشرين، فلا مسار الصدام مع الأنظمة أدى إلى كسر احتكار السلطة والثروة (سوريا ومصر)، ولا اللجوء إلى صناديق الاقتراع شقّ الطريق إلى الدولة الموعودة (تونس والجزائر). كذلك فشلت التجربة الأفغانية التي عوّل عليها عزّام لإعادة بناء المجتمع المسلم بواسطة الطليعة النموذجية المجاهدة، إذ بدلاً من أن تكون أفغانستان القاعدة الصلبة لدار الإسلام أو دولة الخلافة، تحوّلت بعد الانسحاب السوفياتي عام 1989 إلى ساحة تناحر بين الفصائل والقوميات، كما فشل عزّام وكذلك بن لادن في وقف النزيف وتوحيد الصفوف. أما المجاهدون العرب فتفرّقوا في نهاية الحرب، فمنهم من عاد إلى بلاده مكرّماً، ومنهم من قبع ذليلاً في السجون، ومنهم من هام على وجهه يطلب الأمان أو ساحة جديدة للجهاد، ومن بقي منهم في باكستان وأفغانستان لم يكن بمقدوره العودة أصلاً، في حين كان المؤمّل منهم أن يصبحوا نواة القاعدة الصلبة التي بشّر بها عزّام لسنوات. بل اغتيل عبد الله عزّام قائد المجاهدين العرب نفسه في بيشاور في ذلك العام، بعد محاولات سابقة لاغتياله، وعاد بن لادن إلى السعودية بعد ورود تحذيرات باستهدافه أيضاً. وعقب زيارة قصيرة إلى باكستان، رحل بن لادن إلى السودان نهاية عام 1991 بعد عامين ونيّف من قيام نظام الإنقاذ بقيادة عمر البشير وحسن الترابي، بحثاً عن أرض صالحة لإقامة المشروع الإسلامي إياه، أي أن يكون السودان هو الدولة القاعدة بعد تعذّر ذلك في أفغانستان. وانشغل بن لادن على مدى ثلاث سنوات بدعم الدولة الإسلامية الناشئة بما يمتلكه من قدرات مالية وعلاقات تجارية وخبرات عمرانية، لكن اعتقال كارلوس[75] عام 1994

(75) إليتش راميريز سانشيز المشهور بكارلوس، ولد عام 1949 من أسرة فنزويلية ثرية، ودرس المرحلة الجامعية في موسكو قبل أن ينضم إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، اعتنق الإسلام عام 1975. ذاع صيته في سبعينات =

بتواطؤ سوداني، ومحاولة اغتياله في الخرطوم هو مما اضطّره للعودة إلى أفغانستان التي ستشهد الولادة الثانية لـ"القاعدة" وفق برنامج عمل مختلف نوعياً، مع بقائها امتداداً أيديولوجياً للفكرة الأولى التي نظّر لها سيّد قطب وأخوه محمد وعبد الله عزّام. فخطابات بن لادن خَلَتْ عملياً من المفاهيم النظرية، واقتصرت على تناول الأحداث السياسية والتحريض ضد أمريكا وحلفائها في المنطقة وخارجها. لكنه تطرّق إلى تجربة أفغانستان ومآلها، وآلية التغيير ومساره، والهدف الموسوم من ضرب نيويورك وواشنطن عام 2001، في محاضرة ألقاها في وقتٍ ما بعد سقوط حكم طالبان، مما يمكن اعتباره نصاً نادراً ذا دلالات أساسية لفهم الفارق بينه وبين عزّام في رؤية الصراع وآلياته.



شكل رقم (5)

= القرن العشرين عقب العملية التي اختطف فيها وزراء نفط الدول الأعضاء في منظمة أوبك عام 1975 باسم الثورة الفلسطينية. وقد ألقي القبض على كارلوس في العاصمة السودانية الخرطوم، وهو الآن يقضي حكم السجن المؤبد في فرنسا بتهمة قتله عملاء للاستخبارات الفرنسية.

يقول بن لادن فيما يبدو أنه ترداد لكلام عزّام من قبل: "إنّ الدعوة لا بدّ لها من أرض، وهي التي تقوم بنصرتها وإيوائها". وقد استمرّ النبي ﷺ في البحث عن هذه الأرض، أثناء الدعوة في مكة لثلاث عشرة سنة. وهنا يظهر بوضوح حسب تعبيره أنّ هذه الكلمة رغم قوتها فلا بدّ لها من عناصر أخرى لكي تظلّل الأرض. فلما تيسّرت أرض المدينة المنورة، واحتضن أهلها الأنصار من الأوس والخزرج هذه الدعوة انتشر الإسلام، وإذا بمئات الألوف يدخلون في الإسلام في جزيرة العرب خلال بضع سنين[76].

وعلى هذا، يرى بن لادن أنّ الدعوة تنحسر بغير قوة، ولا بدّ لها من البحث عن القوة في الأرض، فرغم كثرة الجامعات والمدارس وكثرة الكتب والخطباء والأئمة والمساجد وحَفَظة القرآن، إلا أنه بعد سقوط دولة الخلافة قامت أنظمة تحكم بغير ما أنزل الله، وهي في الحقيقة تحارب شرع الله. لكن ما هي الصفات الواجب توافرها في القاعدة القوية حسب تعبير بن لادن لإعادة الناس إلى الإسلام؟ يعتبر بن لادن أنّ الزمن هو زمن الردّة، وثمة خمس صفات تتصف بها الجماعة التي تتولى هذه المهمة، طبقاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المَائدة: 54]. وهذه الصفات هي: المحبة العظيمة لله سبحانه وتعالى، والذِلّة على المؤمنين والتراحم، والتناصح بالحسنى وبالمعروف، والعزّة على الكافرين، ثم الجهاد. ويضيف: "إذا قمنا بتحقيق هذه الصفات، وأوجدنا عناصر تتخلّق بهذه الصفات، فنكون قد أوجدنا القاعدة القوية التي تبدأ في التغيير، وتجاهد في سبيل الله سبحانه وتعالى إلى أن يقوم الحق". وعليه، "فالذين يريدون أن يقيموا للإسلام شأناً بدون تضحيات الهجرة، وبدون تضحيات الجهاد في سبيل الله، لم يفقهوا منهج محمد ﷺ، وإن فقهوه ولم يعملوا به واشتغلوا بغيره من الطاعات، فهؤلاء يتهرّبون من تَبِعات هذه العبادات الثقيلة"[77].

(76) أسامة بن لادن، توجيهات منهجية (1)، منبر التوحيد والجهاد: www.tawhed.ws
(77) المصدر نفسه.

لكن ماذا عن الواقع ودروسه؟ يسترجع بن لادن تجربة أفغانستان وما انطوت عليه من فرصة نادرة للهجرة وإقامة الدولة بعدما مُنع أهل الإسلام الصادقون من إقامتها منذ سقوط الخلافة -حسب تعبيره- فلما جاءت الأحداث في أفغانستان، استعان الغرب بأيّ شيء لدفع الاتحاد السوفياتي، ولو كان بالمجاهدين أو الأصوليين، ففُتح ذلك الباب. ومضت بضع عشرة سنة، وهُزِم الاتحاد السوفياتي، ولكن الأمة لم تلتقط الفرصة ولم تنهض بواجبها المطلوب، وخاصة العلماء والدعاة والخطباء والجماعات الإسلامية، وإنما الذين جاءوا إلى أرض الجهاد لنصرة المجاهدين هم نفر بسيط من شباب الأمة، مع ما قدّمه بعض التجار من بعض أموالهم، ولكن لم تكن كافية لإقامة دولة قوية. وكانت الفرصة آنذاك -برأي بن لادن- جيدة جداً لإقامة دولة إسلامية قوية وبإعتبارات إسلامية بعيداً عن التعصّبات القُطرية والقَبَلية، وكان الأفغان آنذاك في انشراح وتعاون غير عادي[78]. ويعيد بن لادن فشل المشروع رغم الحثّ والتحريض عليه، وخاصة من عبد الله عزّام ومن غيره للجماعات وللعلماء وللمفكرين، إلى انشغال الناس باعتبارات أرضية وقُطرية، حيث كلٌّ يريد أن يقيم هو شخصياً دولة الإسلام، وكلّ جماعة تريد أن تقوم الدولة الإسلامية في أرضها، وكأنهم أسرى لهذه الأفكار، فمكثت هذه الفرصة بضع عشرة سنة ولم يتحرّك الناس للاستفادة منها[79]. ويبدو بن لادن هنا شمولياً في نظرته إلى الجهاد وإقامة الدولة الإسلامية، ولا بدّ أنّ نظرته النقدية هذه قد تمثّلت في طريقة عمل "القاعدة" فيما بعد. ثم يلاحظ بن لادن أنه حتى مع قيام دولة طالبان، بقي الناس أسرى لأهوائهم وللإعلام العالمي الذي شنّ حملة لا هوادة فيها ضد الطالبان معتبراً أنه من غير المقبول أن يقول الدعاة والذين تصدّروا لنصرة الدين أمام الناس إنهم تأثّروا بالإعلام العالمي[80]، والمعنى ضمناً أنّ مشروع الدولة القوية واجهته عقبات كثيرة رغم الانتصارات التي حقّقتها طالبان ضد خصومها، ولعلّ هذا ما شجّع بن لادن للمضيّ في طريق آخر هو ضرب العدو البعيد بهدف تحريك

(78) المصدر نفسه.
(79) المصدر نفسه.
(80) المصدر نفسه.

الجماهير وتوحيد الأمة على هدف إقامة الدولة المبتغاة، وعدم الاكتفاء بالبناء على الانتصارات الميدانية التي تحقّقها إمارة طالبان الطريّة العود لتكون لاحقاً نواة الخلافة العالمية. فلو تمكنت حركة طالبان أواخر عام 2001 من السيطرة على كامل أفغانستان فستظلّ في حال العزلة والحصار إضافة إلى ضعف الموارد وقلة الحلفاء.

وفي هذا المجال يعتبر بن لادن أنّ من أهم الآثار الإيجابية لهجمات 11 أيلول (سبتمبر) 2011، أنها "كشفت حقيقة الصراع بين الصليبيين والمسلمين، وأظهرت ضخامة العِداء الذي يُكنُّه الصليبيون – حسب تعبيره – عندما نزعت الغزوتان (في نيويورك وواشنطن) جلد الشاة عن الذئب الأمريكي فظهر على حقيقته البشعة، واستيقظ العالم أجمع من الرقاد، وانتبه المسلمون إلى أهمية عقيدة الموالاة في الله والمعاداة في الله، وقويت روح الأخوَّة الإيمانية بين المسلمين، مما يعتبر خطوة عظيمة نحو توحيد المسلمين تحت كلمة التوحيد لقيام الخلافة الراشدة"[81].

وعلى هذا، فإن بن لادن لا يبتعد كثيراً عن عزّام الذي دعا إلى مقاتلة عدو لا يختلف عليه أحد في العالم الإسلامي مثل إسرائيل وروسيا في ذلك الحين من أجل كسب الجمهور لقضية بناء المجتمع والدولة على أسس إسلامية. وإذا كانت لائحة الأعداء الأكثر بروزاً في زمن عزّام تتضمن بالدرجة الأولى إسرائيل وروسيا، فإن الولايات المتحدة تحتل رأس اللائحة في زمن بن لادن الذي أورد من مبرّرات هذا العداء إضافة إلى دعمها التقليدي لإسرائيل، ما فرضته من حصار اقتصادي مدمّر على العراق في عهد صدّام حسين، وسقوط مئات آلاف الضحايا من الأطفال. بالمقابل، ظلّ عزّام أميناً للفكر القُطْبي الذي يضع التربية العَقَدية الطويلة نسبياً شرطاً مسبقاً قبل الدخول في مرحلة الجهاد، أما بن لادن فيَلِج باب التغيير الجذري وبناء الدولة الإسلامية القوية من خلال الجهاد. بل إنه بهذه الطريقة الفريدة قد اعتمد استراتيجية الهَرَم المقلوب بشكل كامل دون مواربة، قاصداً عبر ضرب العدو الأكثر مكروهية في العالم الإسلامي استنفار أوسع شرائح

(81) المصدر نفسه.

المجتمع لتنتفض جماعياً على الأنظمة التابعة لواشنطن، بعد أن تضعف سيطرتها بتهاوي راعيها الأكبر، فيكون التغيير بأقل الخسائر.

ومن طيّات "إعلان الجهاد على الأمريكان المحتلين لبلاد الحرمين"، لعام 1996، يبدو أنّ بن لادن قرّر استهداف العدو البعيد (أمريكا)، فراراً من تكرار ما حدث في وقت سابق في مصر والجزائر وفي تونس وسوريا، ذلك أنّ ضرب المدنيين والعسكريين بعضهم ببعض – في المملكة العربية السعودية – كما حدث في البلدان المجاورة هو من سياسة التحالف الإسرائيلي الأمريكي وهو المستفيد الأول من ذلك، فلا بدّ من التركيز – حسب بن لادن– على ضرب العدو الرئيسي الذي أدخل الأمة في دوّامات ومتاهات منذ بضعة عقود بعد أن قسّمها إلى دول ودويلات، فكلما برزت دعوة إصلاحية في الدول الإسلامية دفع وكلاءه لاستنزافها وإجهاضها، أحياناً بجَبْرها على الصدام المسلح مع تحديد الزمان والمكان فيقضي عليها في مهدها، وأحياناً يُدخلها في حرب كلامية فيشوّش عليها ويثير العداوات الشخصية، ويبقى الكفر الأكبر مسيطراً على الأمة، وتنحصر المناقشات في الفروع ويغيب الحديث عن الأصول والعقائد، مثل تحكيم شريعة الله[82].

ويمضي بن لادن في تبرير استهداف العدو البعيد مستنداً إلى قاعدة أصولية فقهية، فيقول إنّ "ما قرّره أهل العلم هو تكاتف كلّ أهل الإسلام للعمل على دفع الكفر الأكبر الذي يسيطر على بلاد العالم الإسلامي مع تحمّل الضرر الأدنى في سبيل دفع الضرر الأكبر ألا وهو الكفر الأكبر، وإذا تزاحمت الواجبات قُدِّم آكدها". وأضاف: إنّ دفع العدو الأمريكي المحتل هو أوجب الواجبات بعد الإيمان فلا يُقدَّم عليها شيء مع التغاضي عن بعض القضايا الخلافية التي ضررُها في هذه المرحلة أقل من بقاء الضرر الأكبر جاثماً على ديار المسلمين، وذلك لما له من آثار وخيمة ومن أهمها استنزاف الطاقات البشرية حيث إنّ الإصابات ستكون في صفوف المسلمين، واستنزاف الطاقات المالية، وكذلك تدمير البنية التحتية للدولة، وتفكّك

(82) أسامة بن لادن، إعلان الجهاد على الأمريكان المحتلين لبلاد الحرمين، 1996، منبر التوحيد والجهاد.

المجتمع، وتدمير الصناعات النفطية، معتبراً أنّ الاحتلال الأمريكي هو أكبر خطر على الاحتياط النفطي لأنه يستفزّ البلاد ويعتدي على دينها ومشاعرها ويدفعهم إلى الجهاد، وإنّ انتشار القتال في تلك الأماكن يعرّض البترول لخطر الاحتراق مما يؤدي إلى الضرر بالمصالح الاقتصادية لدول الخليج وبلاد الحرمين وأضرار جسيمة للاقتصاد العالمي. كما أنّ من أضرار الاقتتال الداخلي تقسيم بلاد الحرمين واستيلاء إسرائيل على الجزء الشمالي، والتقسيم هو مطلب ملحّ للتحالف الإسرائيلي الأمريكي، في حين أنّ الجزيرة هي رمز لوحدة العالم الإسلامي بوجود الكعبة المشرفة قبلة كلّ المسلمين، وهي قوة اقتصادية هامة في العالم الإسلامي؛ لوجود أكبر احتياطي بترول في العالم فيها، بالإضافة إلى وجود عمق استراتيجي ومَدَد بكثافة بشرية مقاتلة في سبيل الله في اليمن، وإنّ أيّ قتال داخلي مهما تكن مبرّراته مع وجود قوات الاحتلال الأمريكي يشكّل خطأ كبيراً حيث إنّ هذه القوات ستعمل على حسم المعركة لصالح الكفر العالمي[83] ودعا بن لادن في ذاك الإعلان للحفاظ على الثروة النفطية وأن لا يُقحمها أنصارُه في المعركة لأنها ثروة إسلامية عظمى وقوة اقتصادية كبرى لدولة الإسلام الكبرى، وحذّر الولايات المتحدة من إحراق النفط في نهاية الحرب، خوفاً من وقوعها في يد خصومها وإضراراً بمنافسيها في أوروبا والشرق الأقصى[84].

وتكشف مطالعته المطوّلة حول خصائص الجزيرة العربية استراتيجياً، أنه كان يعوّل على الجزيرة العربية لتكون القاعدة القوية للدولة الإسلامية القوية، لا سيما مع كونها ذات رمزية عالية وجاذبة للمسلمين في كل مكان، ولأنها تتمتع بثروات نفطية هائلة ما يجعل الدولة الإسلامية فيها مستقلة استقلالاً حقيقياً، وهذه المواصفات لم تكن لتتوافر في أفغانستان.

خاتمة

إنّ تنظيم "القاعدة" مزيج من العفوية والقصدية، الارتجال والتخطيط،

(83) المصدر نفسه.
(84) المصدر نفسه.

وكأن للعوامل الذاتية والموضوعية نصيباً متعادلاً في قرار التكوين وتحديد الأهداف والأساليب ورسم الاستراتيجية العامة. ولإيجاد الصيغة المناسبة، يمكن القول إنّ هذه الحالة العفوية ابتداءً وجدت من ينظّمها، ويضع لها أيديولوجية حالمة واستراتيجية محدّدة، فعادت "القاعدة" في فترة الولادة الثانية لتكون إطاراً تنظيمياً أشدّ صرامة وأكثر طموحاً، دون التخلي عن خيار استيعاب الجماعات الأخرى، في صِيَغ مرنة لم يسبق لها مثيل، وهذه هي الخاصية الأخطر، إذ إنّ تبدّل الظروف مرة أخرى بعد غزو الولايات المتحدة لأفغانستان خريف 2001، أعاد "القاعدة" جزئياً إلى سيرتها الأولى، مع الاحتفاظ بالاستراتيجية المعلنة، وفتح المجال أمام فروع "القاعدة" وحلفائها للمبادرة على طريقة التعهّد من باطن، أو أخذ التوكيلات العامة، ولو أدى ذلك إلى غَلَبة استهداف العدو القريب على العدو البعيد، لدى التنظيمات المحلية أو على الأقل اختلاط الأمرين، وهو ما أضعف قدرة "القاعدة" في مجال التحكّم والسيطرة على أفعال فروعها وأخواتها، لكنه جعل التنظيم كياناً ذا حَرَكتين متناقضتَيْن في الظاهر، متناغمتَيْن في الجوهر، في معادلة معقّدة تحمل أقداراً متفاوتة من المكاسب والأضرار في السياق الاستراتيجي العام.

أما استنتاجات البحث فيمكن تلخيصها على الشكل التالي:

1 – يدلّ الإطار الفكري والأيديولوجي التي تأسّست فيه "القاعدة" أول مرة عام 1988، أنه امتداد حقيقي للفكر القُطبي المشتقّ من رَحِم جماعة الإخوان المسلمين(85)، الحركة الإسلامية السياسية الأكبر راهناً، لكنه مع ذلك لا يمثّل الفكر الإخواني، لا في زمن التأسيس ولا في الزمن الحاضر. على أنّ الفكر الذي يمثّله سيّد قطب خاصة ومن بعده عزّام، كان الأساس المتين للجماعات الجهادية فيما بعد، دون أن يتوافق بالضرورة مع المسائل المستحدَثة لاحقاً لجهة إعلان الجهاد العالمي قبل إقامة الدولة الإسلامية بحسب النموذج المعتَبر نظرياً، واعتماد

(85) يلاحظ في هذا المجال أن مفردات الطليعة والقاعدة والعصبة قد ترددت بشكل منهجي في كتابات الأخوين قطب وعزام قبل تأسيس "القاعدة" لأول مرة عام 1988.

الجهاد نفسه أداة للتغيير، واستهداف المدنيين من غير المسلمين من غير تمييز بين محاربين أو مسالمين، وهو ما يُعرف في القوانين السارية بـ"الإرهاب".

2 – لا تبدو "القاعدة" في وثائقها التأسيسية على الأقل، على أنها جماعة تقليدية، فبسبب المكوّن السلفي الطاغي فيها، ابتعدت عن النَّمَط الإخواني الحزبي، ولم تعتنِ كثيراً بالترويج لاسمها، ولا اعتبرت نفسها جماعة المسلمين، لكنها بالمقابل طمحت لأن تكون جماعة الجماعات، معسكراً مفتوحاً لمن يرغب، وجماعة منفتحة لمن يريد الانضمام من سائر الجماعات وغيرها، وهدفها الأول إيجاد حركة جهادية عالمية موحدة، فكان اهتمامها منذ البداية بتكوين الجبهات والائتلافات، وتحوّلت أخيراً إلى علامة مسجّلة تُمنح شارتُها لمن يرضخ لبرنامجها وأسلوب عملها وضوابطها الشرعية والميدانية. لكن هذا الاتجاه الأساسي، أنتج مشكلات تنظيمية شائكة، وأوقع "القاعدة" في عَثَرات ميدانية وإعلامية، حتى رأى أسامة بن لادن في الأشهر الأخيرة من حياته، أنّ هذه الأخطاء تكاد أن تؤدي إلى خسارة الحرب مع أمريكا[86].

3 – تفرّدت "القاعدة" عن سائر الجماعات الجهادية المحلية، بأنها تضع نُصب عينيها ضربَ ما تراه (الكفر الأكبر) أي الولايات المتحدة حالياً، وفي أثناء ذلك، تحمّل الأذى من (الكفر الأصغر) وتعني به الأنظمة الحاكمة في العالم الإسلامي والتي لا تحكم بالشريعة، وهو ما دُرج على تسميته بأولوية استهداف العدو البعيد على العدو القريب. لكن هذا المبدأ النظري المقصود به الخروج من مستنقع الاحتراب داخل المجتمعات الإسلامية لم يكن سهل التطبيق، فثمة نزعة أصيلة لدى الجماعات المحلية لتقديم القريب على البعيد، كما أنّ اجتياح أفغانستان والعراق عامي 2001 و2003، جعل الأمر أكثر التباساً حين اندمج العدوّان البعيد والقريب في مكان واحد، أي القوة الغازية وأحلافها المحليين. ثم قامت الثورات العربية من تونس إلى سوريا بدءاً من

(86) الوثيقة الأولى من وثائق أبوت آباد، مركز مكافحة الإرهاب، رقم: SOCOM-2012-0000019.

أواخر عام 2010، فعادت الأولوية – عملياً لا نظرياً – إلى العدو القريب، بالنسبة لأنصار "القاعدة" فضلاً عن أفراد الجماعات الأخرى التي لم تؤمن يوماً بضرب العدو البعيد[87].

4 – اعتمدت "القاعدة" في عملية تحريض الجمهور أو تثويره، على استراتيجية الهَرَم المقلوب (كما هو مبيّن في الشكل رقم 5)، ما يعني أنّ أيّ جهد عسكري ضد عدو خارجي هو الوقود اللازم لنشر الفكر والدعوة إليه من أجل تشكيل القاعدة الشعبية وتوسيعها، وهي الشرط الضروري استطراداً لبناء الدولة الإسلامية. ولأن الطليعة المفترضة بحسب السّياق النظري المشار إليه، تواجه منفردة عن سائر الناس، القوة الأولى في العالم مع ما تتمتع به من إمكانيات هائلة وتحالفات واسعة، فإن قيادة التنظيم تواجه التصفية المنهجية، لكن يبقى تعويل أصحاب هذا الفكر على تحوّل هذه الطليعة إلى أداة تحفيزية للأمة كي تقوم بدورها المنتظر. وإذا كانت الثورات هي بشكل من الأشكال من نتائج هذه الاستراتيجية المعقّدة، لكنها انطلقت في مسار موازٍ وليس متطابقاً، فنشوء "القاعدة" وإرهابها العالمي كان من أجل إقامة الخلافة وتحكيم الشرع بحسب أدبياتها السائدة، فيما ثورات العرب هي من أجل ردّ الظلم، وهنا تكمن المفارقة فحين تسقط الأنظمة يكون ذلك باسم سيادة الشعب لا الشرع، وأحياناً بدعم من العدو البعيد.

5 – أخيراً، إنّ "القاعدة" كفكرة ظهرت قبل سنوات طويلة من نشوئها كتنظيم. وهذه، قابلة للتجدّد والانبعاث حتى لو دُمِّر التنظيم الحالي كاملاً. إذا كان هذا صحيحاً إلى حدٍّ كبير فهي الجوهر وهو الشكل، وبإمكان الفكرة التمظهر بأكثر من شكل ما دام الجوهر قائماً، بل يمكن أن يقودها أيّ شخص بالمواصفات المطلوبة كحدّ أدنى، ووفق أُطُر مختلفة باختلاف الظروف، رغم أنّ دور القائد صاحب الكاريزما أساسي وحيوي في مثل هذه التنظيمات غير التقليدية. وكما حدث مع بن لادن في لحظة التأسيس الثاني بعد عزّام، فإن عرى "القاعدة" أو حلقاتها المتوازية، يمكن أن تتعرّض لتحوّلات وتغيّرات بل اضطرابات،

---

(87) أما آثار الربيع العربي على "القاعدة" فتحتاج إلى دراسة معمقة ليس هنا موقعها حالياً.

فيقع اصطفاف جديد، شرط الحفاظ على الفكرة الأساسية دونما تغيير، أو ما تعنيه "القاعدة" وفق بنود أربع أساسية أي:

- تكوين الطليعة المجاهدة الجاهزة للتدخل في أي مكان.
- البحث الدؤوب عن القاعدة الجغرافية الصافية والآمنة لإقامة رأس جسر على طريق إقامة الخلافة.
- استهداف العدو البعيد (الولايات المتحدة) لتحقيق الأهداف المرسومة ضد العدو القريب (الأنظمة السياسية في الدول العربية والإسلامية).
- اعتماد الإرهاب كسلاح رئيسي في الصراع.

فلو تخلى التنظيم عن البندين الأخيرين، فسيعود مفهوم القاعدة إلى ما كان عليه في عهد عزّام على الأقل، أو إلى ما قبل ذلك إذا سقط معهما البندان الأولان أيضاً. ولا تعود حينئذٍ "قاعدة"، بل نُثار مجموعات دون خيط ناظم.